

أبو القاسم الشابي

شاعر الحب والثورة

رجاء النقاش

أبو القاسم الشابي

شاعر الحب والثورة

(دراسة ومختارات)

رجاء النقاش

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل lisanerab.com

رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب
حسام حسين

مستشار النشر
أحمد جمال الدين

رقم الإيداع
١٠٨٧١ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى
٠ - ٧٣ - ٦٠٨١ - ٩٧٧

الطبعة الأولى

الجمع والإخراج الفنى
«مكتبة ابن سينا»
ت : ٦٣٧٩٨٦٣ ف : ٦٣٨٠٤٨٣

مطابع العبور الحديثة

الكتاب : أبو القاسم الشابي (شاعر الحب والثورة)
المؤلف : رجاء النقاش
الغلاف : للفنان إلهامى عزت
الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م
٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة
E-mail:atlas@innovations-co.com
تليفون : ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٤٦٥٨٥٠
فاكس : ٣٠٢٨٣٢٨

"إِنْ كانْ فى وُسْعِكَ أنْ تُحِبَّ ،
ففى وُسْعِكَ أنْ تَفْعَلَ أيَّ شيء"

تشيكوف

"إنَّ الهَدَفَ مِنَ الحَيَاةِ هُــوَ الإِحْسَاسُ
العنيفُ والشعـورُ بأَنَّنا أحْـياءٌ
ولو كَانَ ذَلِكَ فِى خِضَمِّ الأَلَمْ"

بـــيرون

كلمة فى المقدمة

أبو القاسم الشابي

ولد أبو القاسم الشابي فى مجتمع كان يحتاج إلى الفنان ليوقظه من ركود الإحساس والشعور ، وكان يحتاج إلى الثائر ليقوده فى معركة سياسية واجتماعية حاسمة ضد سيطرة الاستعمار الغربي ، وضد سيطرة الحكم الداخلي الفاسد الذى قضى مئات السنين ولا عمل له إلا استغلال الشعب بصورة أليمة ، وكان هذا المجتمع بحاجة إلى من يعالجه بصبر وحب كاملين ، فقد " عشعشت " جراثيم الأفكار القديمة فى عروقه ، وبدا كأن هذا المجتمع - من طول تأخره وتخلفه - يعشق التأخر والتخلف ، ويكره أى طبيب يحاول العلاج أو يهدف إلى تغيير المجتمع .

ولقد كان أبو القاسم الشابي - إلى حد بعيد - شخصًا يحمل كل الصفات والأسلحة المناسبة التى تجعل منه عنصرًا قويًا للتأثير فى هذا المجتمع .

كان شاعرًا موهوبًا غنى الإحساس ، وكان خياله الشعرى مليئًا بالصور الفنية الغزيرة النادرة ، وكان - إلى

جانب ذلك - ذا طبع إنسانى ممتاز .. إنه مولود وفى قلبه ابتسامة مشرقة وعلى فمه ابتسامة مشرقة ، الكلمات التى نطقها طيلة خمسة وعشرين عامًا هى كل عمره ، كانت كلها كلمات محب عاشق للإنسان والحياة ، وقد قاده هذا العشق إلى الارتباط الصادق بأحزان بلاده ومشاكلها والتعبير عن هذه الأحزان والمشاكل .. وسرعان ما اجتمع الفن والثورة فى شخصيته الصادقة مما ترك أثره القوى على وطنه الصغير : تونس ، ووطنه الكبير : الوطن العربى .

تلك هى الملامح العامة لشخصية الشابى .. وهى ملامح تحتاج إلى تفصيل يكشف لنا عما كان يقف وراء هذا الفنان العاشق الثائر من دوافع الإحساس والعمل .

وإذا أردنا أن نفهم الشابى فلابد أن نفهم تونس والوطن العربى ، فهو واحد من هؤلاء الشعراء الكبار الذين ترتبط قصتهم دائمًا بقصة وطنهم ، وليس واحدًا من هؤلاء الفنانين الذين يمكنك أن تدرسهم بمعزل عن وطنهم لأنهم لم يؤثروا فيه و لم يتأثروا به .

بذورُ ثورة

فى أواخر القرن التاسع عشر بدأ الغــرب يســتقر بسياســته ومصالحه وجيوشه وأعلامه فى كثير من أجزاء الوطن العربى ، وقد كانت الجزائر هى أسبق بلد عربى إلى السقوط فى يد الاســتعمار الغربى ، فهى لم تسقط فى أواخر ذلك القــرن كغيرهــا ، وإنمــا سقطت فى أوائله حيث استقرت السيطرة الفرنسية فيــها ســنة ١٨٣٠ .

أما تونس – بلد " أبو القاسم الشابى " – فقد سقطت فى يد الفرنســيين سنة ١٨٨١ ، أى قبل الاحتلال الإنجليزى لمصر بعام واحد ، ومنذ ذلك الحين كانت تخضع لحكم مزدوج : حكم الفرنسيين أولاً ، وحكم الباى ثانيًــا ، والباى هو الذى ورث الحكم عن أسرته المعروفة باسم "الأسرة الحســينية " التى ظلت تحكم تونس منذ سنة ١٧٠٥ إلى ســنة ١٩٥٦ حيــث أعلنــت الجمهورية التونسية وتم خلع آخر " البايات " . والباى كلمة تركية كــانت تطلق على حاكم تونس عندما كانت خاضعة للأتراك ، وهى كلمــة تشــبه كلمة " الخديوى " فى مصر .

وسرعان ما قام التحالف بين الباى والفرنسيين ضد مصالح الشعب ، وهــو نفس التحالف الذى حدث بين الخديوى توفيق وبين الإنجليز الذيــن دخلــوا مصر فى عهده ، ثم استمر هذا الحلف بعد ذلك كحلف تقليدى بين الإنجلــيز وأسرة محمد على ، وكان هذا النوع من التحالف فى تونس ومصــــر علــى

السواء موقفًا تقضى به طبيعة الأمور ، فلا الباى فى تونس ولا الخديوى فى مصر كانا يدافعان عن مصلحة الشعب ، وإنما كانا يدافعان عن مصالحهما الخاصة فى الحكم والاستغلال ، وكان يكفى أن يقتسما المغانم مع المستعمرين الأجانب ولا حساب للشعب بعد ذلك .

ومن مواقف باى تونس التى تكشف عن طبيعة هذا النوع من الحكم أنه أرسل جيشًا تونسيًا إلى الحدود الجزائرية سنة ١٨٨١ وذلك لمساعدة الجيش الفرنسى ضد الجزائريين ... ولهذا الموقف وأمثاله لم يجد الفرنسيون أى دافع لتغيير نظام الحكم المحلى فى تونس ، ذلك النظام الذى يقف الباى على قاعدته وقمته معًا .

وفى الحرب العالمية الأولى أعد "باى" آخر من "بايات" تونس جيشًا من ستة وخمسين ألفًا من التونسيين ليحارب فى صفوف الفرنسيين ، وقد انتهت الحرب بقتل اثنى عشر ألفًا منهم . واستمر بايات تونس فى تنازلهم عن حقوق الشعب وهى الحقوق التى لم يعترفوا بها فى يوم من الأيام ، كل ذلك فى سبيل مصالحهم الخاصة ، وخوفًا من الاصطدام مع الفرنسيين ، واستمرارًا لطبيعة هذا النوع من الحكم الذى يقوم على أساس "الفرد" أو "الأسرة" أو ما يسمى "بالحقوق الإلهية" التى ينسبها بعض الحكام لأنفسهم ، والتى كانت سببًا لكثير من الثورات فى الشرق والغرب ، وهى ثورات أدت بكثير من أصحاب بـ "الحقوق الإلهية" المصطنعة الزائفة إلى المشانق والمقاصل والنفى فى الجزر البعيدة والأراضى المهجورة .

وكان من المظاهر البارزة الأخرى لتنازل البايات عن حقوق الشعب ، أن تم تسجيل أفضل الأراضى الزراعية فى تونس باسم المستوطنين الفرنسيين ، كما أصبحت معظم الوظائف التونسية فى يد الفرنسيين ، فمن بين ثلاثين ألف موظف إدارى فى تونس بعد الحرب العالمية الأولى هناك خمسة وعشرون ألفًا

على التقريب من الفرنسيين فى مقابل خمسة آلاف من أبناء تونس .

وفى الميدان الاقتصادى كان اليهود يسيطرون على معظم الصناعات والحرف الصغيرة ، وعلى الأخص صناعة الأحذية وصناعة النسيج ، وكان يهود تونس يطالبون بأن يطبق عليهم القانون الفرنسى وقواعد الحياة الفرنسية فى كل شيء ، حيث كانوا يشعرون بالولاء للمال أولاً ، شأن "المزاج اليهودى" و "التاريخ العملى لليهود" فى كل أنحاء العالم وفى مختلف مراحل التاريخ ... وكان اليهود يشعرون – ثانيًا – بالولاء لفرنسا ، ولم يكونوا يشعرون بالولاء لتونس التى ولدوا فيها وعاشوا على خيرها ... فلقد كانت فرنسا فى تونس هى السلطة الاستعمارية التى تحمى الاستغلال والمستغلين داخل المجتمع التونسى .

ثم تأتى "المأساة الثقافية" إذا صح التعبير لتعطى الملامح الأخيرة للمحنة التى كانت تعيش فيها تونس فى ظل الاستعمار ، فقد كانت المدارس المختلفة تضم ١٢,٥ ٪ من أبناء تونس ، ٨٧,٥ ٪ من أبناء فرنسا ، وذلك حسب الإحصاء الذى أورده عمر فروخ فى كتابه عن "الشابى" .

هذه صورة عامة لتونس فى أوائل القرن العشرين ، وفى هذا الجو المليء بالظلم والحزن ولد أبو القاسم الشابى .. وبالتحديد فى الرابع والعشرين من فبراير – شباط – سنة ١٩٠٩ .

ولكن هذه الفترة لم تكن مظلمة تمامًا ولا خالية من أى شعاع من الضوء ، فكلما اشتد الظلم والتأخر اللذان يهددان شعبًا حيًا بالهلاك ، بدأت الأفكار الثورية تولد كبذور لعالم جديد وقوى جديدة تهدف إلى إنقاذ الشعب من الكارثة ... وربما اختبأت الأفكار الثورية المتفتحة فى الحوارى والبيوت الفقيرة البسيطة ، وربما استترت بالظلام والتظاهر بالسذاجة تخفّت وراء النكتة وخفة الروح ، كل ذلك لتتحايل وتتمكن من الانطلاق بعد ذلك لتكون أساسًا

للمستقبل ، وربما اختبأت هذه الأفكار القوية الخصبة فى عقل رجل يلبس العمامة ويتحدث باللغة العربية الفصحى ، ويبدو وكأنه رجل دين لا علاقة له بالدنيا ، أى لا علاقة له بالحكام والشعوب ، وربما اختبأت هذه الأفكار على "مصطبة" يجلس فوقها ناس يتدارسون - فى العلن - أمور الفقه والنحو وما إلى ذلك ، وهم فى حقيقة أمرهم يدرسون معنى الثورة وطريقة الثورة... يدرسون "سر الحياة" السليمة ، ويفكرون فى تغيير الظلم ونشر العدل فى المجتمع المظلوم ، وربما اختبأت هذه الأفكار الثورية على حصيرة جامع يقف الناس فوقها ، يتجهون بقلوبهم إلى الله ، وهم فى أعماقهم يشعرون أن الله هو العدل وهو رغيف الخبز وهو الحروف التى حرم الملايين من تعليمها ، لأن الله عادل وعليم ومحب للفقراء .

وهذا ما حدث فى تونس ... فقد كانت تظهر وسط الظلام الحالك أشعة خافتة هنا وهناك ، وكانت هذه الأشعة الخافتة هى التى تجمعت وقويت بعد ذلك لتقلب الأمور فى تونس وفى كثير من أجزاء الوطن العربى الأخرى .

وكان الشعاع الأول هو بدون شك ذلك الشيخ الغريب الذى ينتقل من بلد إسلامى إلى بلد آخر "يوزع السعوط بيمينه ويوزع الثورة بيساره " ... ذلك هو جمال الدين الأفغانى ، الأب الشرعى "لثورات أوائل القرن العشرين" فى كل جزء من أجزاء الوطن العربى ، رغم أنه بذر بذور هذه الثورات فى أواخر القرن التاسع عشر .

لم يذهب الأفغانى إلى تونس بنفسه ، وإنما ذهب إليها بمبادئه وتلاميذه ، وفى سنة ١٨٨٥ - أى بعد احتلال تونس بأربع سنوات تقريبًا - ذهب الشيخ محمد عبده صديق الأفغانى وتلميذه إلى تونس ، وكان هدف الرحلة هو الاتصال بالمثقفين التونسيين ودفعهم إلى الثورة على الأوضاع التى كان العالم الإسلامى العربى يعانى منها فى ذلك الحين .

والفكرة التى كان يحملها الشيخ محمد عبده معه – وهى فكرة الأفغانى فى الوقت نفسه – هى فكرة تجديد الإسلام ، وربطه بالحياة العصرية ، وتخليص الدين من البدع والخرافات ، والدعوة إلى الإيمان بالعلم الحديث ، والخروج بالدين من مرحلة "الكهانة" والانعزال عن الحياة فى الجوامع والمدارس المختلفة إلى مرحلة جديدة حية ، وبذلك يستطيع العالم الإسلامى أن يعود إلى قوته ، ويتخلص من الاحتلال الغربى وسيطرة البايات فى تونس ، وأسرة محمد علىّ فى مصر ، والأتراك فى سوريا ولبنان .

ودارت المناقشات الواسعة بين الشيخ محمد عبده وبين مشايخ "جامع الزيتونة" وهو الجامع الذى كان وما زال يقوم بدور الأزهر فى مصر . وكان لهذه المناقشات أثرها الكبير فى تونس من الناحية الفكرية والناحية السياسية .

ولابد من الإشارة هنا إلى ظاهرة مهمة من الظواهر الرئيسية فى أوائل القرن العشرين ، هذه الظاهرة هى أن "الثائر" فى معظم الأحوال فى الوطن العربى كله فى تلك الفترة كان ثائرًا دينيًا . وهناك أكثر من سبب لهذه الظاهرة :

ففى معظم البلاد العربية كانت "الثورة" موجهة ضد الغرب ، مما كان يجعل هذه البلاد تتجه إلى فكرة الخلافة الإسلامية كرمز للكفاح ضد أوروبا . فهذه الخلافة – من الناحية الشكلية على الأقل – هى التى توحد المسلمين وتجعل لهم شخصية قوية فى مواجهة الاستعمار الغربى ، فقد كان المعنى الأول الظاهر لهجوم الاستعمار الغربى على البلاد العربية هو معنى القضاء على المسلمين والحضارة الإسلامية ، مما جعل خروج "الثائر" من معطف الثقافة الدينية الإسلامية أمرًا ضروريًا وملائمًا لروح تلك الفترة ، أى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وحتى الثورة العربية سنة ١٩١٦ كانت تهدف إلى إقامة خلافة إسلامية عربية فى وجه الخلافة الإسلامية التركية ، ونستطيع أن نجد قائمة طويلة من الثوار فى الوطن العربى فى تلك الفترة كان

الأساس فى تكوينهم هو الثقافة الدينية مثل : الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى والنديم وعبد العزيز جاويش وبن باديس وغيرهم .

كذلك لم يكن للعرب ثقافة خاصة سوى الثقافة الإسلامية ، لم يعرفوا الثقافة الغربية إلا على نطاق محدود ، ولم تتكون لهم بعد ثقافة جديدة معاصرة، ولذلك لجأوا إلى بيتهم الوحيد الذى يملكونه وهو التراث العربى الإسلامى ... كان العرب بحاجة إلى قوة معنوية تسندهم فى صراعهم ، ولم يكن لديهم قوة معنوية سوى "الإسلام" وقد تجسدت الثقافة العربية وروح الحضارة العربية حتى ذلك الوقت فى شىء واحد هو الإسلام . وفى تلك الفترة فقد العرب كل شيء على التقريب ، فكانت أنظمة الحكم متخلفة رجعية ، وكان الاقتصاد مرتبكًا خاضعًا للاستعمار يقوم على أسس واهية ... ومن هنا لم يكن أمام العرب فى أية محاولة لليقظة أو الثورة إلا أن يعودوا إلى تراثهم الإسلامى القديم ، يستمدون منه قوة وعزمًا على التقدم والتحرك إلى الأمام... فلقد كان الواقع الذى يعيشون فيه فاسدًا لا يحمل أى نوع من أنواع الإلهام الحضارى والإنسانى .

وهنا نجد ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة ، فرائحة "الوحدة" كانت تشيع فى العالم العربى فى ذلك الحين ، وكان الأساس الوحيد الظاهر لهذه الوحدة هو الأساس الإسلامى ، وقد ظلت البذرة الفكرية للوحدة العربية كما هى ، ولكنها تطورت ونضجت وأصبح أساسها الآن هو الأساس القومى بمعناه العصرى ... معنى الاشتراك فى التاريخ والمصلحة والمستقبل .

كذلك كانت الأفكار الدينية فى أوائل القرن العشرين متغلغلة فى عقول الناس وقلوبهم حتى أصبح من الضرورى أن يبتدئ كل شىء بهذه العبارة "المباركة" : "بسم الله الرحمن الرحيم" ... كان لابد أن يبدأ كل شىء بها ، حتى الثورة نفسها كان لابد أن تبدأ بهذه العبارة .

وبالفعل بدأت الثورة على يد هؤلاء الثوار الدينيين ، وكانت البداية هي الدعوة إلى بعث الإسلام وتجديد الثقافة الإسلامية ، لكى يستطيع العرب أن يتلاءموا مع العصر الحديث ، ويجدوا قوة تسمح لهم بمواجهة التحدى الوافد إليهم من وراء البحار ... من الغرب .

وظهر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وكانت أهدافهما ثورية إصلاحية ولكن من خلال الدين ، وقد حدد جمال الدين الأفغانى أهدافه - وأهداف الثوار فى ذلك العصر - فى فكرتين رئيسيتين : الفكرة الأولى هى محاربة الخرافات التى انتشرت فى حياة جماهير المسلمين العقلية والواقعية ، أما الفكرة الأخرى فهى الاهتمام بإقامة العقيدة على أساس الترعة العقلية ، لا النزعة الغيبية ، وكانت هذه الفكرة الأخيرة تهدف إلى القضاء على العداء التقليدى الموروث الذى تراكم خلال أجيال طويلة بين العقل والدين ، من ثَمَّ بين الحضارة الحديثة وبين العقلية الإسلامية فى صورها المختلفة .. لقد كانت هذه الفكرة الثورية تهدف إلى إعادة إيمان المجتمع العربى الإسلامى بالعقل ، وإفساح المجال أمامه للابتكار والعمل ، بعد أن كانت الروح المسيطرة على الحياة هى روح التسليم بالواقع ، وعدم القدرة على تغيير هذا الواقع باعتباره صورة من إرادة عليا لا تقبل المناقشة أو التمرد .

وقد كان من تأثير هذه الحركة الفكرية الجديدة التى قادها جمال الدين الأفغانى وحملها معه محمد عبده إلى تونس فى رحلته الأولى سنة ١٨٨٥ ثم فى رحلته الثانية سنة ١٩٠٣ ، أن قامت جمعيات فكرية عديدة تدعو إلى التجديد والتطور ، وكان أبرز هذه الجمعيات وأكثرها تأثيرًا على حياة تونس الفكرية هى "جمعية قدماء الصادقية" التى نادت بالأفكار التحررية الجديدة ، ودعت بقوة إلى الأخذ بمبادئ الحضارة العصرية ، وكان الشابى عضوًا فى هذه الجمعية حيث ألقى بها محاضرته الهامة "عن الخيال الشعرى عند العرب" .

فى عالَم الأحْزَان

تلك هى صورة من الحياة التى ولد فيها "أبو القاسم الشابى" والتى أصبح "أبو القاسم" نفسه بعد فترة جزءا منها وعــــاملاً قويًا مؤثرًا فيها ، ولكن لابد أن نلقى نظرة على حياته الخاصة، وأهم ما نلاحظه هو أن هذه الحياة كانت عاديـــة بســيطة فى البداية ، ليس فيها عقبات أو عوائق تقف فى طريـــق موهبــة الشاعر أو تعمل على تعطيلها بل على العكس كـــانت بيئــة مناسبة .

كان والد "أبو القاسم الشابى" هو الشيخ محمد بن أبى القاســـم ، وكـــان رجلاً متعلمًا متدينًا يعمل قاضيًا شرعيًا ، وقد خلق من بيته بيئة علمية تـــدور فيها المناقشات الفكرية والدينية والأدبية ، وفى هذه البيئة تفتح وعى الشـــاعر على الحياة لأول مرة ، ولم تحدث للشاعر فى حياته العائلية حوادث أخـــرى ذات أهمية وتأثير حتى مات والده سنة ١٩٢٩ ، وكان أبو القاسم حـــينذاك فى العشرين من عمره .

كانت وفاة الوالد صدمة كبيرة بالنسبة للشاعر ، لأنها دفعته إلى أن يواجــه مسئوليات مادية عديدة وهو فى هذه المرحلة المبكرة من عمره ... لقد وضعته هذه الصدمة وجهًا لوجه مع الحياة فى تجاربها العملية الواقعية ، وكان حـــتى ذلك الحين لا يرى أحزانها ومشاكلها بطريقة مباشرة ، بل كان ينظر إليها من بعيد ، فإذا دخل معركة الحياة فإنمّا كان يدخلها بقلب الشاعر الحساس الذى

يرى فى حياة مجتمعه وحياة شعبه ما يدعوه إلى الإقبال على هـــذه المعركـــة والاشتراك فيها . أما الآن فعليه أن يعول أسرته الخاصة ، وكان متزوجًـــا فى ذلك الحين ، وأن يعول - إلى جانب ذلك - الأسرة الأخرى التى تركها أبـوه وراءه ، وقد كانت هذه المسئوليات الخاصة سببًا من الأسباب التى لونت شعر "أبى القاسم" باللون الحزين المكتئب .

كان من الممكن أن نعتبر حادثة وفاة "أبيه" حادثة مؤلمـــة ، ولكنـــه الألم العادى الذى يمر بحياة أى إنسان ، غير أن أصدقاء الشاعر الذين كتبوا عنه قـد أكدوا أن هذه الحادثة كان لها تأثير غير عادى على حياته ، فكتب صديـــق الشاعر "زين العابدين السنوسى" فصلاً كاملاً عن هذه الحادثة فى كتابه عـن الشابى) ... قال الكاتب :

"كانت وفاة والده خسارة مادية هزت من نفس الشاعر وزعزعـــت مـــن نظام حياته" .

والشاعر نفسه يذكر تأثير الحادثة فى شعره ، ففى قصيدة له بعنوان "قيـــود الأحلام" يعدد المشاكل التى تقف فى طريقه ، وتعترض أمانيه التى تـــتركز فى رغبته أن يعيش حياة شعرية مليئة بالأحلام العالية والأفكار العالية معًا ، ولكنه يعجز عن تحقيق هذا الحلم بسبب "الأسرة" ومسئولياتها التى تشده إلى الواقـــع وتحرمه من الحياة على جناح الحلم والأفكار الشفافة :

وأود أن أحيـــا بفكـــرة شـــاعر ... فأرى الوجود يضيق عن أحلامـــى
إلا إذا قطعت أســـبابى مـــع الـــ ... دنيا وعشت لوحدتى وظـــلامى
لكنـــى لا أســـتطيع ، فـــإن لى ... أمًّـــا يصد حـــنانها أوهـــامى
وصغار إخـــوان يـــرون ســـلامهم ... فى الكائنـــات معلقًـــا بســـلامى

فقدوا الأب الحانى فكنت لضعفـــــهم كهفًا يصد غوائل الأيام
هجمت بى الدنيا على أهوالها وخضمها الرحب ، العميق الطامى
فتحطمت نفسى على شطآنه وتأججت فى جوه آلامى

هكذا يعبر الشاعر عن أن "الأسرة" التى تركها أبوه وراءه كانت سببًا من أسباب المأساة العميقة التى ظل يعانيها ويشعر بها طيلة حياته . ولا شك أن "الطبيعة الأخلاقية" لأبى القاسم الشابى هى التى زادت من إحساسه بمسئولية الأسرة .

وهناك دائمًا نماذج من الشعراء والفنانين يصفهم ويعبر عنهم خير تعبير قول برنارد شو : "إن الفنان يؤثر أن يترك زوجته جائعة وأبناءه حفاة وأمه تكدّ لتحصل على لقمتها وهى فى السبعين على أن يترك فنه كى يعمل عملاً آخر".

ولنتذكر مثلا شخصيتى الشاعرين الفرنسيين فرلين ورامبو ، فقد عاشا حياتهما الشاذة بعيدًا عن أى إحساس بالمسئولية أو أى ارتباط خلقى بالأسرة أو بالمجتمع ، لقد حطم فرلين زوجته بالهروب منها والإغراق فى حياة الشذوذ ، ومحاولة فرض الشذوذ عليها ومطالبتها بأن تقبل هذه الحياة ، وحطم رامبو حياة أمه التى كانت تكافح من أجل تربيته وتربية إخوته بعد وفاة والدهم ، وسقط رامبو فى حياة الشارع والظلام والشذوذ ، وعندما التقى بفرلين عاشا حياة كان العامل المشترك فيها هو الخروج على الأخلاق بأوسع معانى الخروج ، ثم الإعجاب الفنى العميق المتبادل بين الشاعرين .

لم تكن طبيعة أبى القاسم تلتقى مع طبيعة هذين الشاعرين الفرنسيين الكبيرين وأمثالهما ، بل كان أبو القاسم فى جوهر شخصيته أخلاقيًا ، مزودًا

بحاسة عميقة نحو فكرة "الواجب" ... الواجب القريب الذى يتصل بالأسرة والأصدقاء ، والواجب البعيد الذى يتصل بالمجتمع والإنسانية . وطبيعة "أبو القاسم" فى هذا الجانب من شخصيته تذكرنى بطبيعة فنان عالمى هو " انطون تشيكوف " برغم اختلاف البيئة والظروف والمشاكل ووسائل التعبير الفنى عند كل فنان ... لقد كان " تشيكوف " مثلا أعلى فى شدة الحساسية نحو فكرة الواجب ، كان يحمل مسئولية أسرته الفقيرة ، بالرغم من أنه ليس أكبر الأبناء ، وكان يحمل هذه المسئولية بنفس القوة التى يحمل بها أحد القديسين فكرة من الأفكار .. يؤمن بها ، ويتحمل فى سبيلها العذاب ، وكأنه سعيد بهذا العذاب منتظر له انتظار العاشق لقاء حبيبته .. وكان تشيكوف يقدس فكرة الواجب نحو عمله كطبيب ، وكثيرًا ما كان يعالج فقراء قريته مجانًا ، ويسهر عليهم ليساعدهم ويعطيهم الدواء والحياة ، وهو نفسه مريض يحتاج إلى العون والمساعدة . وأود أن استطرد قليلاً فى الحديث عن تشيكوف لأنه يمثل مدرسة راقية من مدارس السلوك الإنسانى بالنسبة للفنانين ... ولا شك أن هذه المدرسة هى التى ينتسب إليها أبو القاسم الشابى نتيجة لتشابه الطبع والمزاج والنظرة إلى الحياة والإنسان .

لقد وقف أحد الفلاحين مرة فى الاحتفال بذكرى تشيكوف ليقول إنه يشعر بالحزن لأنه شارك قطعا فى القضاء على حياة تشيكوف ، فقد كان صبيًا فى تلك القرية التى سهر تشيكوف على أهلها يعالجهم ويبذل من لحظات عمره الثمينة ما كانت صحته المعتلة بحاجة إليه ، ولكن روحه العظيمة كانت ترفض التخلى عن إحساسها العميق بالواجب ، وكان نفسه هذا الإحساس يسيطر على تشيكوف إزاء شعبه ، وقد ظهر هذا الاهتمام بآلام الشعب فى أدبه ، ولكن تشيكوف كان يقرن اهتمامه الفنى باهتمام عملى ،

فقد سافر ذات مرة إلى إحدى جزر "سيبيريا" ليكتب بحثًا دقيقًا عن حياة الناس هناك وعن مشاكلهم وتعاستهم ، وتحمل تشيكوف فى هذه الجزيرة النائية آلام البرد القارس ، والوحدة ، والاتصال المباشر بناس "نصف أحياء" .. لكنه كان يرى فى هذا عملاً واجبًا حتى تصدر قوانين أو تقوم حركة تطالب بعمل يحمى هؤلاء المعذبين المرهقين : أنصاف الأحياء ، وأنصاف الموتى .

هذه هى "الطبيعة الأخلاقية" لتشيكوف وهى نفسها الطبيعة الأخلاقية لأبى القاسم الشابى ، إنهما فنانان من معدن إنسانى واحد ، يشعران بأحزان الآخرين كأنها أحزانهما ، ويعطيان الحياة من جهدهما وحبهما ما قد يخفف ولو دمعة واحدة ، ولو لحظة واحدة من لحظات الألم التى يمر بها البشر ، إنهما يقفان بقدر ما يستطيعان فى وجه القسوة والقبح اللذين يشوهان وجه الحياة .

ومن شأن هذه الطبيعة الأخلاقية أن تجعل صاحبها واحدًا من الذين يسعون إلى احتمال الهموم والمسئوليات ولو كان ذلك على حساب أشخاصهم وإمكانياتهم الخاصة .. إنه نوع عظيم من الفنانين ، يجمع بين عظمة الحياة وعظمة الفن ، ولا يستطيع أن يعيش سعيدًا فى عالم فيه فرد واحد يشعر بالتعاسة والحزن .

وقد كان هذا هو شأن أبى القاسم الشابى ، فقد سارع إلى احتمال المسئوليات التى تركها أبوه وراءه ، بكل ما فى هذه المسئوليات من أحزان وهموم .

ويزيد هذه الطبيعة الأخلاقية عند الشابى وضوحًا ما تجده فى حديث معاصريه الذين عرفوه واتصلوا به .. يقول صديقه ومعاصره الأديب التونسى محمد الحليوى :

"إنه رجل إذا حدث لا يكاد يسمع ، وإذا ناقش لا يكــاد يجــرح ، وإذا أثنيت على شعره أو حدثته عن نفسه علت وجهه حمرة الخجــل .. وهــو لم يكن أبدًا لهاته المجالس الصاخبة المليئة بالهزر والسخف" .

هذه الصورة التى رسمها الأستاذ "الحليوى" لأبى القاسم لم يختلف حولهـــا أحد من الذين عرفوا الشابى ، وهى صورة تزيدنا علمـــا بطبيعــة الشــابى المتواضعة، المحبة للواجب ، المقدرة للمسئولية فى الحياة الخاصة والعامة ، فــهو فنان ليس مشغولاً بنفسه ، ولا لاهيا بمجده الشخصى وأحداث حياته الذاتية، وهذا هو الموقف الذى يضع الفنان الموهوب فى نفس المكان الذى تضع فيــه الإنسانية كل أصحاب الرسالات ، هؤلاء الذين أذابوا حياتهم من أجل فكــرة أو مبدأ يتصلان بالآخرين قبل أن يتصلا بالمصلحة الذاتية والوجود الخاص .

على أن "المأساة الخاصة" فى حياة أبى القاسم لم تكن هى مجــرد احتمــال مسئوليات أسرة كبيرة ، فلقد كان أبو القاسم قادرًا علــى أن يحمــل هــذه المسئوليات ، خاصة وأنه بدأ يلمع فى تونس والوطن العربى كله وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وقد كانت هذه المنــزلة الأدبية كفيلة بأن تساعده على توفير منــزلة مادية مناسبة ، تجعل مشاكله أقل عنفا وحدة ، ولكن مأســاة الشابى الخاصة تجسدت فى عامل آخر هو مرضه المبكر ... فقد أصيب قبــل العشرين بمرض التضخم فى القلب ، وظل يعانى من هذا المرض ، ويحــاول أن يعالجه باستمرار ، ويوقف آلامه الشديدة التى كانت تملأ حياتــه بــالعذاب والأسى ، وظل هذا المرض يحطم جسد الشابى شيئًا فشيئًا حتى قضــى عليــه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وقد اضطر فى السنة الأخيرة من حياتــه إلى أن يحاول تخفيف المرض بوضع "الثلج" فوق صدره لفترات طويلة ، وهــذه صورة واحدة من صور العذاب الذى كان الشابى يعانيه فى مرضــه ، إلى أن

قضى هذا المرض على الجسد الرقيق والقلب النبيل .

وقد صبغ هذا المرض حياة الشابي بالحزن ، لأنه كان يقاومه وهو يعلم أنه أقوى من العلاج وأقوى من علم الأطباء وخبرتهم ، وكان يكتم آلامه فى نفسه ليعبر عنها فى شعره ، فهو واحد من هؤلاء الذين يتسمون وهم فى أشد لحظات المحنة ، ذلك لأنهم يرتفعون بالإنسان إلى مستواه الرفيع : ضبط النفس ومقاومة الحزن واحتمال العذاب ... وهنا أيضًا تقودنا المقارنة إلى شخصية تشيكوف الذى كان مريضًا بالسل ، والذى كان يتسم والسعال يمزق صدره ، والدم يسيل من فمه .. ورغم ذلك كان يحاول أن يسيطر على أحزانه التى كانت تختفى من وجهه ولسانه لتستقر فى قلبه وتتسرب إلى أدبه المليء بالحزن والشفافية .

هذا المرض هو عنصر أساسى من عناصر "المأساة الخاصة" التى عاش فيها الشابي وأثرت فى شعره تأثيرًا كبيرًا ، وقد امتلأ شعره بالحديث عن قلبه الجريح الذى يهدده الموت كل لحظة .

غريبٌ فى وطنه

سافر أبو القاسم الشابي فى الحادية عشرة من عمره تقريبًا من بلدته "الشابية" إحدى ضواحى مدينة "توزر" بجنوب تونس- إلى مدينة تونس العاصمة ليتلقى العلم بجامع الزيتونة وهو أكبر معهد علمي بتونس فى ذلك الحين ، وكان أشبه بالأزهر فى مصر .

وخلال السنوات التالية تقدمت سنه وزاد نضجه وبدأ يعى الحياة من حوله، وفى مرحلة النضج عندما اقترب من سن العشرين ، أحس بالصراع الفكرى الدائر بين المحافظين الجامدين وبين المجددين المتحررين ، بين أنصار الإبقاء على العقل العربى أسيرًا للقيود القديمة والذين يريدون تحريره وفتح الآفاق العصرية أمامه .. وأخذ الشاعر جانب المجددين المتحررين ، فقد كان شابًا موهوبًا يحس بالحياة الجديدة إحساسًا قويًا عنيفًا ، ويدرك أن القوالب الجامدة تضيق عن التعبير الصحيح عن إحساسه الجديد . وامتزج الشاعر والثائر فى شخصية أبى القاسم ، وخرجت إلى الحياة تلك الشخصية الجديدة التى تمثل قوة فكرية وفنية كبيرة .

وكانت قوى المجددين المتحررين تتجمع فى جمعية "قدماء الصادقية" وانضم أبو القاسم إلى هذه الجمعية ، وفى الجمعية ألقى محاضرته الشهيرة عن "الخيال الشعرى عند العرب" ، وكانت طبيعة الأمور تقتضى أن ينضم هذا الشاعر الموهوب ذو المزاج الأخلاقى الذى يقدس فكرة الواجب ، ويدرك مسئوليته

العميقة نحو الآخرين .. كان لابد لشاعر هذه طبيعته وهذا مزاجه أن ينضم إلى أية جماعة ثائرة تهدف إلى تغيير ظروف المجتمع وعقليته ... ولو كان أبوالقاسم الشابى مجرد شاعر رومانتيكى محبوس فى أحزانه الخاصة وتأملاته الذاتية ، لابتعد عن الحياة و لم يشارك فى التيار الثورى الموجود ، ولكنه كان شاعرًا حزينا تمتد جذور أحزانه إلى واقع المجتمع ، هذا الواقع الذى يثير الحزن فى النفس الحساسة ويبعث بالكآبة إلى الشعور المرهف ... و لم يكن أبوالقاسم من ذوى الأمزجة السوداوية التى تميل إلى التشاؤم لمجرد التشاؤم ، بل على العكس كان من الأمزجة المحبة للحياة ، المؤمنة بقيمتها وقدسيتها ، والتى تدرك الجمال الموجود فى الطبيعة وتفهمه وتتذوقه ، ولكن الشابى كان يجد كل المعانى الجميلة فى الحياة ضائعة مبددة أمام القوى القبيحة المتخلفة ، ومن هنا.. كان فنانًا ثائرًا وكان فنانًا حزينًا معًا.

والشابى لم يعبر عن نفسه بالشعر فقط بل كتب كتابات نثرية قليلة ولكنها شديدة الأهمية فى الدلالة على شخصيته وأفكاره . ومن خلال هذه الكتابات النثرية نجد أنه كان يبحث عن "فكرة شاملة" حول الفن والحياة ، فكرة تكون نقطة ارتكاز ، وتستطيع أن تقدم تفسيرًا لكل شىء فى الفن والحياة معًا ، وبذلك يكون الشابى من أبرز الشعراء العرب فى القرن العشرين الذين يشغلهم البحث عن فكرة شاملة ، هذا البحث الذى هو دائمًا من شأن الشعراء الكبار الذين لا يقنعون بأن يكون شعرهم مجرد انطباعات متفرقة عن مواقف الحياة المختلفة ، بل هم يبحثون عن خيط يربط تلك المواقف بفلسفة واحدة ، ووجهة نظر أساسية فى الحياة .

ولقد استطاع الشابى أن يصل إلى هذه الفكرة الشاملة التى أقنعته وآمن بها وسماها "يقظة الإحساس" وأصبحت "يقظة الإحساس" فى نظره هى سر التقدم الحضارى والتقدم الفنى .

يقول الشابى :

" تسمع إلى هذا الشاعر فإذا أنت أمام روح إلهى نبيل يسمو بنفسك إلى آفاق الحق والفن والجمال ويجعل منك كتلة من شعور قدسى مشبوب ، وتسمع إلى آخر فترى أنك تسمع إلى حديث ساذج بسيط لا يميزه عن أحاديث الناس العادية إلا رنة النغم وتواتر القوافى وجمال التعبير" .

"وهذا شعب من شعوب الأرض يجدّ ويكدح وينتج ويخصب أينع الثمار وأحلاها فإذا له حياته الأدبية الناضجة وحياته الفنية السامية ، وحياته العلمية الراقية ، وحياته العادية المهذبة ، ومشاعره الطامحة إلى ما هو أجل من ذلك وأسمى ، إلى المثل الأعلى المحجب فى ظلام المجهول . وهذا شعب آخر منصرف إلى التبطل والفراغ ، مخلد إلى الكسل والخمول ، لا يعمل ولا ينتج ولا يجود على الإنسانية بخير ، ليس له فن ولا علم ولا أدب ولا طموح ، بل ولا حياة أيضًا ، إلا كما تحيا ماشية الحقل وآبدة الجبل " .

(وعندى أن السبب الحقيقى لهذا التفاوت هو "يقظة الإحساس" فإذا تيقظ الإحساس فى قلب الشاعر والفنان - بتعبير أشمل - كان له - بالرغم عنه - استقلاله الذاتى الذى يشعره بأنه قوة حية منتجة ، من المستحيل أن تندمج فى سواها ، وأن لا تشق لنفسها سبيلا بكرا للمجد والحياة ، وكانت له كرامة تترفع عن أن تذوب فى غيرها أو أن تنحط إلى درك التقليد ، وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج فى قلب الحياة . وإذا تيقظ الإحساس فى روح الشعب تحركت فى صدره - برغم كل شىء - تلك الأشواق الطامحة والرغبات الجامحة التى كانت مكبلة نائمة فى ليل الدهور ، وإذ ذاك يشعر بنفسه - وإذا قلنا "يشعر بنفسه" فقد قلنا كل شىء - ويعلم أنه عضو حى فى هاته الجامعة البشرية ، عليه واجب السعى والعمل فى سبيل كمال الإنسانية المنشود ، فى سبيل مثل الحياة العليا ، فى سبيل الحق والقوة والجمال" .

هذا هو تفسير الشابى لفكرته عن "يقظة الإحساس" عند الفنان وعند الشعب ، وقد حاول الشابى أن يزيد توضيح هذه الفكرة فى رسالة إلى أحد أصدقائه نشرها الأستاذ أبو القاسم محمد كرو فى كتابه عن "آثار الشابى"...فى هذه الرسالة يقول الشابى :

(إن سبب جمود الفن العربى واتباعه تلك الطريقة الهندسية المتشابهة التى لا تمت إلى الحياة والعمق والخيال بسبب قريب أو بعيد هى : روح الأمة العربية "القديمة" ، فهى روح مادية ساذجة ، وإنك لتنظر إلى آثارها الفنية من أدب ونقش وتصوير وميثولوجيا فلا تجد لها حظا من نفاذ الإحساس وعمق الخيال وروحانية المشاعر . حتى أن المذاهب الفلسفية التى تغلب عليها النزعة الروحانية لم تعرف سبيلا إلى نفوس العرب ، فمذهب وحدة الوجود الذى هو أعمق نظريات المتصوفة ، لم يشتهر به من متصوفة الأمة العربية إلا من كانوا أغرابًا عن العرب كالسهر وردى والحلاج والشمس التبريزى وجلال الدين الرومى . ولعل من الأسباب أنهم لم ينقلوا عن الهند والرومان شيئًا مما يتصل بالجانب الروحى والناحية الفنية ، فهم قد اطلعوا على أدب فارس واطلعوا على عقيدتها ، وفارس هى أقرب الشعوب الآرية شبها بالعرب من ناحية الحس والخيال ، وهم قد اطلعوا على بعض آداب الهند ولكنهم لم يدرسوا عقيدة الهند درسًا عميقًا يستطيع أن يؤثر فى تاريخهم الفنى أثره البعيد، لأن ما فيها من عمق فنى ونفاذ فى الفكر وسكرة فى الإحساس قد كان منافيا لطبيعتهم "القنوعة" الساذجة فحال بينهم وبينها ، كما أنهم لم يدرسوا تاريخ الفن بأوسع معانية لا عند الرومان ولا عند اليونان إلا قليلاً من أساطيرهم لا تكفى لشرح نظرتهم الفنية إلى هذا العالم ، ولعلهم لم ينقلوها إلا ساخرين بوثنيتهم المسكينة ، وبذلك وقفت آداب العرب وفنونهم فى منطقة ضيقة لا عمق فيها ولا قوة إحساس بالحياة ولا مجاوبة للكون بالفهم والحس والخيال" .

هذه هى وجهة نظر الشابى فى الأدب العربى القديم ، وهى وجهة نظر متطرفة وعنيفة إلى حد الخطأ ، ولكنها وجهة نظر صحيحة فى جانب من الجوانب ، فالقلق والشك والتجارب الروحية العنيفة الحادة التى امتلأت الآداب العالمية القديمة - وخاصة الأدب اليونانى - بالتعبير عنها .. كل هذا النوع من الموضوعات والقضايا والآفاق الإنسانية مفقود فى الأدب العربى إلا فى استثناءات قليلة ، مثل التأملات المبعثرة للشاعر الجاهلى طرفة بن العبد ، والتأملات الفلسفية العالية فى قصائد المتنبى الرائعة ، ولعل النموذج المتفرد فى هذا الميدان هو شعر أبى العلاء المعرى الذى امتلأ بالفكر الفلسفى والتأمل العميق فى المصير الإنسانى والتعبير عن القلق والشك الروحى الكبير .

وسر هذه الظاهرة فى الأدب العربى القديم - ظاهرة نقص التعبير عن القلق الكبير - هو أن الحياة العربية كانت حياة عملية بسيطة محدودة غير معقدة لا تكاد تتيح فرصة للتجارب الروحية الكبرى التى تعرض لها شعب مثل الشعب اليونانى القديم ، ذلك الشعب الذى انشغل انشغالاً فلسفيًا وأدبيًا واسعًا بمصير الإنسان فى هذا الكون ، فظهر فيه فلاسفة فى مثل قامة سقراط وأفلاطون وأرسطو وأبيقور ، كما ظهر فيه أدباء فى مثل قامة أسخيلوس ويوربيدس . ولقد كان الشعب اليونانى القديم شعبًا وثنيًا مثل الشعب العربى فى الجاهلية ، ولكن الوثنية اليونانية امتزجت امتزاجًا عميقًا بالفن والجمال والفلسفة والأساطير ، أما الوثنية العربية فكانت وثنية فقيرة محدودة القيمة ضيقة الأفق لا تكاد تربطها صلة بالفن والجمال والفلسفة والأساطير اللهم إلا فى حدود شديدة الضيق .

ثم جاءت التجربة الروحية والحضارية الكبرى فى حياة العرب وهى ظهور الإسلام . ولكن حضارة العرب بعد الإسلام قامت على اليقين الدينى الصارم وعلى تحديد مكان لكل شىء فى هذا الوجود وفى صورة ثابتة

لا تحتمل الشك ولا تقبله .. فالله فى مكانه ، والإنسان فى مكانه ، والكون فى مكانه ، ولا تبديل لشيء ولا مجال للجموح الفكرى أو الوجدانى بالنسبة لهذه القضايا على الإطلاق .

هذه بعض الأسباب التى حددت انطلاق الأدب العربى القديم وكان لها من الآثار ما سجله أبو القاسم الشابى فى رسالته التى أشرنا إليها ، والتى كتبها إلى أحد أصدقائه وعبر فيها عن ملاحظاته الحادة القاسية عن الأدب العربى القديم . ولا شك طبعًا أن نظرة الشابى تتجاهل كثيرًا من القيم الأصيلة فى الأدب العربى القديم ، ولكن الشابى له عذره لأنه يحمل نظرة جديدة إلى الفن والحياة لم يجد لها صدى فى الأدب العربى القديم ، فثار وتمرد ليفتح الباب لنفسه ولغيره حتى يقدموا ذلك الأدب الجديد الذى يريده الشابى ويؤمن به .

ونعود إلى فكرة "يقظة الإحساس" عند الشابى ... إن يقظة الإحساس عند هذا الشاعر الثائر هى التفتح على المعانى الواسعة العميقة فى الحياة الإنسانية والتطلع إلى معرفة الطبيعة معرفة عميقة ، وإلى معرفة أسرار التجربة البشرية فى هذا العالم معرفة واسعة أيضًا ، والتجربة البشرية تشمل التصوف والأساطير التى حاول الإنسان فى بعض العصور أن يعرف من خلالها حقيقة الوجود .

وهكذا يتطلع الشابى إلى مستويات جديدة فى الفن ، ويريد للإحساس العربى الجديد أن يكون على غاية من التيقظ لما يدور فى الكون ، وألا يغفل أبدًا عن أسرار الحياة وهمسات قلبها ، وكل ما يدور فيها حتى ولو كان فى الظل ، بعيدًا عن الأضواء .

ويحاول الشابى أن يدفع بنظرته إلى أقصى درجاتها فى محاضرته عن "الخيال الشعرى عند العرب" والتى طبعت فى كتاب مستقل بعد أن ألقاها الشاعر فى "جمعية قدماء الصادقية" ، ولقد كانت هذه المحاضرة سببًا فى ثورة المحافظين عليه ، واتهامه بالزندقة الأدبية والزندقة الدينية لأنه هاجم الإيمان المطلق بالأدب

العربى القديم ، بل هاجم الأدب القديم هجوم من يريد تجديد الروح العربية ، وتوسيع الآفاق أمام النفس العربية .

فى هذه المحاضرة يقول الشابى :

"إن الأدب العربى غنى بالخيال الصناعى أو الخيَال المجازى وهو خيال المجاز والاستعارة والتشبيه وغير هاته من براعات الألفاظ والتعابير التى أشبعتها البلاغة على اختلاقها بحثًا ودرسًا .

ولكن هذا النوع من الخيال المألوف إن دل على بعض نواح خاصة من روح الأمة فهو لا يدل على مقدار شعورها بتيار الحياة كعضو حى فى هذا الوجود ، ولكن هناك نوعًا آخر من الخيال اتخذه الإنسان لا للتزويق والتشويق ، ولكن ليتفهم من ورائه سرائر وخفايا الوجود ، وأسميه "بالخيال الفنى" لأن فيه تتطبع النظرة الفنية التى يلقيها الإنسان على هذا العالم الكبير ، وأسميه أيضًا "الخيال الشعرى" لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور فى صميم الشعور ، فالخيال الشعرى بهذا المعنى العميق الذى تلتقى فيه الروح الفنية والفلسفة فى آن، والذى نفهم منه نفسية الأمة وندرك ما الذى لآفاقها الروحية من عمق وسعة وضياء .. ذلك النوع من الخيال هو الذى حرم منه الأدب القديم" .

بهذه الأفكار الحية العنيفة انطلق أبو القاسم الشابى يواجه العقلية الأدبية الجامدة التى كانت شائعة فى تونس ذلك الوقت ، بل كانت شائعة فى الوطن العربى كله ، برغم البدايات الجديدة العميمة التى ظهرت فى الأدب العربى ، مثل حركة الشعر المهجرى ، وظهور جماعة "أبوللو" فى مصر ، وظهور حركة العقاد وشكرى والمازنى من قبل . إلا أن الشابى كان أبرز شاعر عربى حتى قيام الحرب العالمية نادى - نظريًا - بضرورة التجديد وآمن فى الوقت نفسه بدعوته وتحمس لها وطبقها فى شعره بأمانة ، فنحن نجد أن العقاد مثلاً نادى بالتجديد الشعرى وبتحرير القصيدة العربية من القيود القديمة ومن بينها ربط

القصيدة بالمناسبات المختلفة مثل المدح والهجاء والرثاء والتهانى ، ومع ذلـــك نجد أن دواوينه مليئة بقصائد كثيرة من هذا اللون بالرغم من أن هذه الدواوين تحمل - للإنصاف - نماذج شعرية كثيرة تعبر عن وجهة نظر العقاد فى الشعر، أما الشعراء المجددون اللامعون فى جيل الشابى من أمثال علـــى طــه محمـــود وإبراهيم ناجى فلم يكن لهم دعوة نظرية يدعون إليها أو يكتبون بناء عليـــها ، بل كانوا يقدمون شعرهم دون أن يربطوا بينه وبين أية دعوة نظرية ينادون بهـا ويدافعون عنها . أما الشابى فقد كانت له دعوته النظرية التى ينادى بها ويدعو إلى ثورة شعرية تقوم على أساسها ، وهو فى الوقت نفسه يطبق دعوته بصدق وإخلاص وتوافق تام مع دعوته نحس به فى قصائده المختلفة ، وعندما نتصفـح ديوان الشابى لا نعثر فيه على قصيدة مدح أو هجـــاء أو مـــا يشـــبه هـــذه الموضوعات التى ورثناها عن الأدب العربى القديم ، ويرجع ذلك إلى أن نظـــرة الشابى للشعر كانت نظرة رفيعة ، كان يقدس الشعر ويقدس وظيفته فى الحياة الإنسانية ويرفض أن يكون الشعر أداة للأغراض والموضوعات المؤقتة العاجلة ، ولو أخذنا شعراء جيله البارزين مثل ناجى وعلى محمود طه ومحمود حســـــن إسماعيل لوجدناهم جميعًا يكتبون فى هذه الموضوعات التى رفضها الشابى رفضًا نهائيًا ، واقتصر فى شعره على الموضوعات الإنسانية العميقة التى يجد فيها مجـالاً لتأملاته وأفكاره ومشاعره ، وهنا يتميز الشابى على شعراء جيلـــه ، فـــهو لم يكن "منقادًا" إلى التجديد بسبب أحاسيس عامة غامضة ولكنه كان يصدر فى تجديده عن نظرة فكرية وإنسانية أحسها وفهمها فهمًا صحيحًا صادقًا .

وإذا كان أبناء جيل الشابى ومدرسته الرومانسية من الشــــعراء يعـــودون "أحيانًا" إلى الموضوعات التقليدية ، فإن شعراء الجيل القديم وأدباءه والذيـــن كانوا يسيطرون تقريبًا على الحياة الأدبية فى الوطن العربى كانوا يعيشــــون على المفهوم القديم للشعر ويحرسونه حراسة عنيفة ، وكـــانت الموضوعـــات

القديمة من مدح وهجاء ورثاء وتهنئة هى المادة الشعرية الأساسية ، وكانت "الخطابة" هى الطابع النغمى لشعراء هذه المدرسة التقليدية المسيطرة ، وكانت هذه المدرسة بالطبع تمجد الماضى الأدبى تمجيدًا مطلقًا ولا تجد فيه عيبًا أو نقطة ضعف ، بل تجد العيب والضعف فى الخروج على هذه التقاليد والثورة عليها ، ولذلك كان ظهور الشابى خطرًا على هذه المدرسة وعلى أنصارها الكثيرين ، وقد لقى الشابى ما يستحقه شاعر جرىء جديد الإحساس والتفكير من عداء وكراهية ، فهاجمه كثيرون فى بلده ، وحاولوا أن يعزلوه عن جماهير القراء ويشككوا فى قيمته الشعرية ، وقد نجحوا إلى حد ما فى الوصول إلى بعض ما كانوا يهدفون إليه ، وكان نجاحهم هذا سببًا من أسباب اكتئاب الشاعر وحزنه وإحساسه بالغربة فى وطنه ، وقد بلغ هذا الإحساس بالغربة أحيانًا حدًا عنيفًا دفع بالشاعر إلى نوع من الشعور بأنه يقف وحده .. وحده تمامًا فى بلاده ، فأبناء شعبه لا يسمعون نداءه إلى "يقظة الإحساس" بالحياة ، ولا هم يسمعون نداءه إلى الحيوية والتمرد والإقدام فى مقاومة الظلم السائد فى المجتمع.

وقد عبر الشابى عن أزمته المعنوية تعبيرًا مباشرًا فى بعض أوراقه التى وصلت إلينا من مذكراته الشخصية ، يقول الشابى فى جزء من مذكراته قبل وفاته بأربع سنوات تقريبًا :

"أشعر أنى غريب فى هذا الوجود ، وأننى ما أزداد يوما فى هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعوراً بمعانى هذه الغربة الأليمة ، غربة من يطوف مجاهل الأرض ويجوب أقاصى المجهول ثم يأتى ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدًا منهم يفهم من لغة نفسه شيئًا" .

ثم يصرخ فى صوت منخفض ولكنه ملىء بالألم :

"الآن أدركت أنى غريب بين أبناء بلادى .. وتلك مأساة قلبى الدامية" .

وهو يعبر عن إحساسه بالغربة أيضًا فى قصيدته المشهورة "النبى المجهول" فيقول:

أيها الشعب ليتنى كنت حطّابًا … فأهوى على الجذوع بفأسى
أنت روح غبية تكره النور … وتقضى الدهور فى ليل ملس(1)
إننى ذاهب إلى الغاب يا شعبى … لأقضى الحياة وحدى بيأسى
ثم أنساك ما استطعت فما أنت … بأهل لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيدى … وأفضى لها بأحزان نفسى

هذا هو حصاد معركته مع الحياة والمجتمع ... مجدد متوثب الفكر والروح وسط عقول محافظة جامدة متعلقة بالقديم . طموح إلى الحرية والانطلاق وسط شعب سحقته التقاليد القديمة وأفسدت روحه أنظمة الحكم الاستعمارية. إنها غربة الإنسان الموهوب الذى سبق عصره ، وحمل فى قلبه وعقله صورة المستقبل الذى لم يكن كثيرون يستطيعون تصوره فى ذلك الحين.

---

(1) الملس : هو الظلام الشديد .

المهاجرُ برُوحهِ

لم يكن الشابى يعرف لغة أجنبيـــة ، ولم يكـــن متلائمًـــا بالروح أو بالعقل مع الثقافة العربية القديمة المسيطرة علـــى بيئته فى تونس ، ولذلك بدأ يبحث عن مكان "يهاجر" إليـــه بروحه ...

مكان يتلاءم معه ويجد فيه عالمًا يشبه عالمه ويعبر عن أحاسيســـه الجديـــدة وأفكاره الجديدة ، وقد بدأ الشابى يهتم اهتمامًا واسعًا بـــالأدب المـــترجم ، وأخذ يقرأ المترجمات عن الأدب الفرنسى ، منذ صباه الأول أى قبل أن يبلـــغ الخامسة عشرة من عمره .

واكتشف الشابى أيضًا أدب المهجر ، وأدب جبران خليل جـــبران بوجـــه خاص ، وقد لقى الشابى فى أدب المهجر لونا من الأدب ، خاليًا من العيـــوب التى أحسها فى الأدب العربى القديم ، بل والتى أحسها ومازال يحسها كل دعاة التجديد فى أدبنا المعاصر ، فالشعر المهجرى عند شعرائه اللامعين يخلـــو مـــن الاهتمام بالموضوعات السطحية مثل المدح والهجاء وتوديع مسافر واســـتقبال قادم ، ويخلو هذا الشعر أيضًا من النـــزعة الخطابية وتحل فيـــه روح وديعـــة إنسانية هامسة ، كما أن شعر المهجر يحمل محاولات عميقة للتعبير عن أفكـــار فلسفية شاملة ، وذلك كان مطلبًا مهمًا من مطالب الشـــابى ... أن يجمـــع الشعر بين الفن والفلسفة ، ألا يقف الشعر عند الحدود السهلة البسيطة بـــل ينطلق إلى آفاق إنسانية عالية ... وكان الشعر المهجرى عنـــد أبى مـــاضى

ونسيب عريضة وجبران وميخائيل نعيمة نوعًا من الفلسفة الإنسانية والتأملات العميقة فى النفس وفى الطبيعة وفى الحياة عمومًا .

وهذه العناصر الفنية والفكرية فى شعر المهجر جعلت هذا الشعر هو المدرسة الأساسية التى تربى فيها وعى الشابى الفنى .

ولكن أهم شخصية كان لها تأثيرها على الشابى من أدباء المهجر هى شخصية "جبران خليل جبران" . لقد أشعل جبران بكتابته أكثر من معنى رئيسى فى عقل الشابى نفسه ، فقد كان جبران ثائرًا متمردًا على وضع المجتمع العربى ، وكان يكتب من بعيد كتابة حارة لينادى أبناء الشرق العربى ويطالبهم بالخروج من قيود التقاليد القديمة ، ومن استعباد أرواحهم للماضى ، وتجاوب الشابى مع هذه الدعوة الجبرانية تجاوبًا قويًا . فجبران كان يعبر عن دعوته تعبيرًا أدبيًا ثائرًا مما كان له صداه الكبير عند الشابى الذى كان يشبه أرضًا متعطشة إلى الثورة والتغيير الاجتماعى والإنسانى الشامل .

كان جبران يقول :

"بلية الأبناء إنما تأتيهم من ميراث الآباء ، ومن لا يحرر نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبدًا للأموات حتى يصير من الأموات" .

"والشرقيون يعيشون فى مسارح الماضى ، ويميلون إلى الأمور السلبية المفكهة ، ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية التى تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالأحكام الهادئة ، إنما الشرق مريض تناوبته العلل ، وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم ، وألف الألم ، وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة ، فمن كان خاليًا منها عد ناقصًا محرومًا من المواهب والكمالات العلوية" .

تلك هى كلمات جبران وأفكاره ... ومثل هذه الأفكار الثائرة على وضع العقل العربى والروح العربية فى بداية القرن العشرين كانت هى نفسها الأفكار التى يعيشها الشابى ويحس بها ، فلم يكن غريبًا أن يهاجر الشابى بروحه إلى أدب جبران وعالم جبران ، ففيه يجد نفسه على حقيقتها بينما لا يجدها فى عالمه الواقعى ... فى مجتمع تونس فى ذلك الوقت ..

ومما يكشف لنا مدى تأثر الشابى بجيران ما كتبه الشابى فى رثاء جبران سنة ١٩٣١ ، وسوف ننقل هنا نص مقال الشابى لأهميته فى الدلالة على التأثير الكبير الذى تركه جبران فى شخصية الشابى . يقول الشابى :

" مات جبران ولكن روحه لن تموت

مات جبران وأصبح سرًا صامتًا فى ضمير الموت وخيالاً ساريًا فى مجاهل الأبد الغامض الرهيب .

أجل مات جبران واختفى عن هذا العالم إلى الأبد وأصبح بعيدًا بعيدًا عن أبناء هذا الوجود .

مات جبران ، مات ذلك الذى جلبته الحياة من طين وماء وكبلته بأصفاد الزمان والمكان واتخذت منه قصبة جوفاء تتغنى بها حينا ثم تلقيها عيدانا محطمة فى أودية الموت ، أما ذلك الذى صاغه الإله من جوهر الحياة ، أما تلك الجذوة الإلهية المتأججة فى قلب جبران ، أما روح جبران الغريبة الهائمة الواقعة فى مفترق سبل الحياة حائرة متشككة متسائلة مفكرة ، شادية حالمة . أما عبقرية جبران ، أما فن جبران .. فكل هاتة حية خالدة ، لا ولن تموت ، بل إنها ستظل مصدر وحى ومهبط إلهام وستظل مقدسة جليلة إلى أبد الدهر .

كان جبران روحًا شعرية حالمة ، وأنشودة سماوية هائمة ، وبخورًا سحريًا يتضوع فى هيكل هذا الوجود ، وبلبلاً إلهيًا غريبًا غنى للبشرية المحزونة أغانى

الحب والجمال وعلمها محبة الحق وأراها بهاء السماء .

ترنم جبران بأصوات قلبه وتنهدات روحه فى عـــهود الشـباب الجميلــة المخضبة بالدموع والأحلام فكانت أناشيده رقيقة ناعمة كأغانى الملائكـــة ، وكانت داوية كأصوات البحار وكانت شجية ساحرة كأنات ناى بعيد .

وتألم جبران فكانت آلامه لهيبًا شعريًا يرفرف حول أرواح البشر بأجنحـــة من نور ، وكانت زوابع من نار تتأجج فتلتهم الأنصاب والهشيم .

وفكر جبران فكانت أفكاره عميقة كـــالموت جميلـــة كالحيـــاة . فكـــر كالفيلسوف وتكلم كالشاعر فكان لأدبه رقة الشعر وجلال الفلسفة ، وكـان له فن غريب تتعانق فى ظله الحقيقة السافرة والخيال الجموح .

وكان جبران ثورة فى الأدب العربى ولكنها ثورة حبيبة ، جانب البناء فيـها أكثر من جانب الهدم والتخريب ، ثورة أيقظت الناس من ســبات الدهــور وأرهم آفاقا كانت مجهولة ، وأسمعتهم هزيم الحياة وعلمتهم أن روح الشـــاعر كنـــز لا يفنى وثورة لا تبيد وأن فى هذا العالم شيئًا آخر غير الأمس البعيد.

ويمتاز أدب جبران فى رأيى بـــميزتين هـــما فى نظرى دعامتا مجده الـــذى لا يزول : الميزة الأولى : الجدة والطرافة فى أسلوبه وفى معانيه وفى روحــــه ، فإنك لتقرأ أدبه فإذا أسلوب موسيقى متجاوب النبرات ، ومعان خيالية رائعة، وروح متأرجحة ترفرف بين السطور .

الميزة الثانية : الحياة التى لابد أن تحرك فى صدرك حين تقرأه عاطفة أو فكرًا أو خيالاً بل إنها تكرهك على أن تفكر أو تشعر أو تتخيل ، ومن لا يحركـــه أدب جبران ولا يثير شعوره فإنما هو روح مقفرة وقلب مهروم .

وسيقول الناس عن ثورة جبران على قواعد اللغة العربية أحيانًـــا ، ولكـــن ذلك لا يحط من قيمة جبران فما هى إلا هفوة تغفرها له تلك الثورة المعنويـــة

الخالدة التى خلقها جبران للعربية ، وستمر الدهور وتتعاقب الأجيال وينسى الناس عن جبران كل شيء ولكن لا يستطيعون أن ينسوا هاته الحقيقة : لقد كان جبران عاطفة مشبوبة وخيالاً جامحًا وفكرًا قويًا يجوب أعماق الحياة . وسيقول الصديق لصديقه وهو يحادثه فى الليلة القمراء تحت ظلال النخيل أو على شاطئ اللجة الداوية :

"حقًا لقد كان جبران رسول الحق والحب والجمال" .

هذا هو ما كتبه الشابى فى رثاء جبران وقد نشرته له جريدة (الزمان) التونسية فى الثامن من يوليو سنة ١٩٣١ ، ثم أعادت جريدة العمل التونسية نشر هذا الرثاء فى السادس من ديسمبر سنة ١٩٧٤ كنص مجهول من كتابات الشابى .

والذى يمكننا أن نخرج به من هذا الرثاء هو أن الصلة كانت عميقة بين الشابى وأدب جبران . لقد وجد الشابى فى جبران تجسيدًا للثورة الأدبية والفكرية التى كان يحلم بها الشابى ... فجبران ثائر على الأدب التقليدى وثائر على المجتمع العربى التقليدى ، وهو يحاول فى أدبه أن يهز الإنسان العربى ليستيقظ من النوم الحضارى العميق الذى كان يعيش فيه ويعانيه فى أوائل القرن العشرين . وقد استمع الشابى إلى صوت ، ووجد فى هذا الصوت "نغمة" متميزة كان يبحث عنها فى عالمه المتأخر المتخلف الذى تحولت فيه سائر النغمات إلى أصوات تقليدية لا تثير فيه عاطفة ولا تحرك فكرة . ومن هنا ارتبط الشابى بجبران وتأثر به وأخذ عنه ووجد فيه نموذجًا "للبطل" الجديد الذى يحلم به .

ومن الممكن أن تتابع الأفكار المتعددة التى نادى بها جبران وكان لها تأثير قوى على أفكار الشابى مثل رأيه المتحرر السامى فى المرأة ، ورأيه المتحرر فى الدين وهو الرأى الذى يقف ضد الكهانة ويعتبرها - كما يقول جبران -

"الحرفة الأولى التى ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع لها" ، ومن الممكن أن نتابع أيضًا تعبير جبران عن إحساسه بالغربة بين قومه وعدم فهمهم لأفكاره ، ووحدته الروحية كداعية ثائر مجدد بين شعب مستريح للأفكار القديمة مستكين لها . يمكننا أن نتتبع كل هذه الأفكار التى تجاوبت أصداؤها بقوة فى شعر الشابى وأفكاره وشخصيته ، ولكن الأفضل أن نقف عند النقطة الرئيسية وهى أن جبران والشابى كانا علامة من علامات الثورة الرومانسية فى الوطن العربى ، بل كانا من أبرز طلائع هذه الثورة والمعبرين عنها والذين دفعوا ثمنها بشجاعة الأبطال الذين يدخلون معركة يؤمنون بها كل الإيمان[1] .

والثورة الرومانسية فى الحقيقة كانت حركة شاملة عميقة فى أدبنا وحياتنا معًا ، فهذه الثورة هى أول دعوة حقيقية لكى يعود الأديب إلى نفسه بدلاً من أن يظل دائمًا خارج نفسه : يمدح ويهجو وينظم الأحداث الجميلة والقبيحة معًا ، وهذا الموقف الفنى القديم كان يجعل الشاعر دائمًا تابعًا لغيره ... لوجيه غنى ، أو لقصر من القصور، أو لحاكم من الحكام ، ولكن الموقف الفنى الجديد الذى طالبت به الرومانسية هو استقلال الفنان وحريته وصدق صلته بالحياة .

ولم يكن هذا المعنى الثورى للرومانسية هو معناها فى الأدب العربى والوطن العربى فقط ، بل هو معناها أيضًا فى الأدب الأوروبى والحياة الأوروبية، فقد كان الرومانسيون الأوروبيون ثائرين ضد الأرستقراطية والأنظمة الفاسدة ، كانوا من دعاة الحرية والأنظمة الجمهورية ، هكذا كان بيرون ، وكذلك كان أبو الرومانسية الأوروبية : جان جاك روسو . أما

(١) هناك - لحسن الحظ - دراسة طويلة ممتازة عن العلاقة بين الشابى وجبران ، كتبها الأديب العربى الليبى محمد خليفة التليسى وهى دراسة تعالج بالتفصيل كل التأثيرات الجبرانية فى شعر الشابى وآرائه

شيلى الشاعر الإنجليزى الرومانسى الكبير فكان يقول : "إننى أحمل فى جوانحى شهوة لإصلاح العالم" . وكان يقول أيضًا : "الشعراء هم المرايا التى تعكس الظلال الماردة التى يلقيها المستقبل على الحاضر . هم الأبواق التى تدعو إلى المعركة ، هم القوة التى تحرك الأشياء ولا يحركها شىء ، الشعراء هم شراع العالم الذين لم يعترف بهم إنسان" . ولقد أعلن شيلى الحرب على ثالوث الظلم فى نظره والذى يتكوّن من : الملوك والطغاة والقساوسة.

وهكذا نحس أن الشاعر فى المدرسة الرومانسية هو مصلح وثورى وداعية تغيير للمجتمع . والشاعر الرومانسى يميل دائمًا إلى الأفكار المثالية ، إلى التطرف والمبالغة فى الإحساس ، والبحث عن مثل أعلى رفيع للجمال والقوة والخير .

وهذه الصورة المثالية للعالم وللمشاعر الإنسانية ، وهذه المبالغة والتطرف أدت إلى نتائج عملية كثيرة خطيرة بالنسبة للمدرسة الرومانسية ، حتى فى أشخاص شعراء هذه المدرسة وحياتهم الخاصة ، فقد انتحر الشاعر الرومانسى الإنجليزى "تشاترتون" احتجاجًا على قبح الحياة الإنجليزية وعدم تذوقها للجمال كما قال الشاعر المنتحر نفسه ، وانطلق بيرون للأشتراك فى حرب تحرير اليونان من الأتراك وظل فى المعركة حتى مات بالحمى سنة ١٨٢٤ ، أما شيلى فقد ظل يغنى وينشد للحرية حتى مات غريقًا سنة ١٨٢٢، وقبل هؤلاء جميعًا كان جان جاك روسو فى فرنسا ينادى بتغيير المجتمع الإنسانى حتى يصبح أكثر عدلاً ونظامًا ، وكانت كتابات هذا الرومانسى الذى ينادى بجمال الطبيعة وجمال الفطرة الإنسانية ... كانت كتابات روسو تثير الحكومة والكنيسة والطبقات الأرستقراطية ، وكان يضطر إلى التنقل من بلد إلى بلد ، بل ويضطر إلى التنكر تحت أسماء مستعارة حتى يتجنب مطاردة الحكام ورجال الكنيسة وأفراد الطبقة الأرستقراطية التى تخشى

منه على نفوذها .

تلك هى صورة من المواقف العملية التى أدت إليها الثورة الرومانسية فى الغرب ، ولم تختلف الثورة الرومانسية العربية فى طبيعتها عن الرومانسية الغربية، فكانت الرومانسية العربية أيضًا تحلم بتحقيق صورة مثالية كاملة للمجتمع ، وتحلم بتحقيق صورة مليئة بالحيوية والصدق للإنسان العربى بدلاً من صورته الخاملة المليئة بالكسل الروحى والمادى .

كانت الرومانسية فى بلادنا وفى الغرب مبالغة وطموحًا إلى الحياة المثالية ولكنها كانت كما قال عنها "جوركى" :

" أكثر المواقف التى عرفها البشر إنسانية ، إنها تغالى ... طبعًا ، ولكنها تغالى دائمًا فى جانب الخير ، لتثبت كم هو عظيم ذلك الظمأ الدائم الذى يعانيه الناس لهذا الخير" .

وقد شملت الحركة الرومانسية عندنا كثيرًا من المجالات الرئيسية ، ففى المجال الوطنى شهدت بداية القرن العشرين فى مصر زعيمًا رومانسيًا من الطراز الأول ، كان كل همه أن يوقظ العاطفة الوطنية ؛ ويشعل الإحساس بحب الوطن فى النفوس ، وكان يتحدث عن الوطن حديث المحب العاشق أكثر منه حديث الزعيم المصلح ، ذلك هو مصطفى كامل ، ولو قرأنا خطب مصطفى كامل لوجدناها نوعًا من العاطفة الرومانسية ، التى تهتم بمثال خيالى جميل للوطن ...

كان يقول على سبيل المثال :

"بلادى . بلادى . لك حبى وفؤادى . لك حياتى ووجودى . لك دمى ونفسى . لك عقلى ولسانى لك لبى وجنانى . فأنت أنت الحياة" .. "ألا أيها اللائمون ... انظروها وتأملوها وطوفوها ، وأقراوا صحف ماضيها ، واسألوا

الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنًا أعلى مقدمًا وأسمى شأنًا وأجمل طبيعة وأجل آثارًا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز" ؟.

تلك هى كلمات مصطفى كامل ، وهى كلمات عاشق رومانسى يتخيل الوطن حبيبة جميلة ، وينظر إليه نظرة عاطفية سامية رقيقة مندفعة .

ذلك مثال من ميدان السياسة وهو الميدان الذى تأثر وتشبع بروح الثورة الرومانسية فى الوطن العربى ، وهناك نماذج عملية عديدة أخرى مثل الشهيد عمر المختار فى ليبيا ، والشهيد يوسف العظمة فى سوريا ، وهما رجلان كانا يحاربان حربًا عنيفة بقوى ضعيفة إلى أبعد حد ، ولكنهما كانا بطلين يعشقان - حتى الموت - كل ما له صلة بالوطن وتراب الوطن .

وبالطبع كانت هذه الروح الثورية الرومانسية متغلغلة فى الميدان الاجتماعى أيضًا فظهرت دعوة تحرير المرأة فى مصر ، وتجاوبت أصداؤها فى تونس ، وفى شتى أنحاء الوطن العربى .

وكان الأدب فى مقدمة أشكال التعبير عن روح العصر الرومانسى ، وكان الشابى قد شرب هذه الروح وتأثر بها ثم عبر عنها ومثلها خير تمثيل ، وفى هذا الميدان التقى بجبران الذى كان رائدًا من رواد المدرسة الرومانسية ، والذى كان يدعو بحماس إلى أهم مبادئ هذه المدرسة : استقلال الفنان عن التبعية لغير نفسه ومشاعره ، وخاصة تلك التبعية للطبقات الأرستقراطية والحاكمة ، وتحرير المرأة من الجمود والدعوة إلى احترامها وخروجها إلى ميدان الحياة وتفاعلها مع الرجل فى هذا الميدان ، والنظر إليها أيضًا على أنها شعور وعقل ، لا على أنها جسد ووعاء للذة الحسية وحسب ، والدعوة إلى الاهتمام بالطبيعة والفطرة الإنسانية ، ففى الطبيعة تهذيب للحواس وتدريب للذوق وفيها تعميق لإدراك الإنسان لهذا العالم .

هنا التقى الشابى بجبران ، ووجد فيه رفيقًا صادقًا لروحه ومشاعره ، واستطاع الشابى بقوة مواهبه أن يتفوق - شعريًا - فى التعبير عن هذه الآراء والأفكار .

هنا جماعة أخرى هاجر إليها الشابى بروحه ، بعد إحساسه بالغربة فى وطنه، تلك الجماعة هى "جماعة أبوللو" التى أنشأها فى مصر الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وقد ضمت هذه الجماعة معظم الشعراء الشبان البلوزين فى تلك الفترة مثل علىّ محمود طه وناجى ، وكان هؤلاء الشبان جميعًا من الشعراء الرومانسيين المجددين .

وقد رحبت جماعة (أبوللو) ومجلتها بالشابى ترحيبًا كبيرًا ، وفى الوقت الذى كانت صحف تونس ترفض فيه نشر قصائد الشابى ، أو تنشرها فى زوايا مهملة منها ، تلقى أبو شادى رائد "جمعية أبوللو" شعر الشابى بالترحيب العميق ، ونشر قصائده فى أبرز صفحات مجلة "أبو للو" ونشأت على البعد بين أبى شادى فى مصر والشابى فى تونس صداقة خصبة ، ومن خلال مجلة (أبو للو) أطل الشابى على جماهير القراء فى الوطن العربى ، وكانت هذه هى الفرصة الأولى التى أتيحت للشابى ، حتى ينشر شعره على نطاق واسع .

ولم يكن ترحيب "أبوللو" بالشابى مصادفة ، بل كان "التقاءً فنيًا وفكريًا" عميقًا ، فقد قامت جماعة "أبوللو" لتنادى بنفس الأهداف والمبادئ التى كان الشابى يؤمن بها ويحلم بتحقيقها ، فقد جعلت الجمعية من بين مبادئها الأساسية "السمو بالشعر العربى وتوجيه جهود الشعراء توجيهًا شريفًا ، ومناصرة النهضات الفنية فى عالم الشعر " .

لقد التقى الشابى بجماعة تفكر بنفس الطريقة التى يفكر بها ... وكان هذا اللقاء مساندة لروح الشابى وفرصة له حتى يبدع أجمل أغانيه .

المرأةُ ... وشاعرُ المرأة

كان الشابي شاعرًا رومانسيًا بأصدق معانى الكلمة وأعمقـها ، فأين يذهب الشاعر الذى ترك موضوعات المدح والهجاء وشعر المناسبات الخارجية ؟ ... إن عالمه الآن بعد أن تحرر من عبء المناسبات الخارجية يبدأ من نفسه ، من مشاعره الذاتية ، وأرقى شعور بالنسبة له ، بل إن أرقى شعور فى هذا العالم هو : الحب .

والشاعر الرومانسى هو أكثر من يعرف قيمة الحب فى الحياة ، والشاعر الرومانسى يبدأ حياته النفسية بالشعور بالانفصال عن العالم الواقعى ، والغربة عن هذا العالم ، وهو يعيش بخياله مع أطياف الحب وصوره ، ويبنى لنفسه عالمًا من أغصان الطبيعة وأشجارها وزهورها يأوى إليه ويرتاح فيه ليفكر فى قلبه وفى حبيبته الموعودة .

لقد وقف الشابى إلى جانب المصلح الاجتماعى التونسى "الطاهر حداد" فى دعوته إلى تحرير المرأة ، وكان "الطاهر حداد" يشبه إلى حد كبير قاسم أمين فى مصر ، وقد ألف كتابًا بعنوان "امرأتنا فى الشريعة والمجتمع" يقول فيه : "إذا كنا نحتقر المرأة ولا نعبأ بما هى فيه من هوان وسقوط فإنما ذلك صورة من احتقارنا لأنفسنا ، ورضائنا بما نحن فيه من هوان وسقوط ، وإذا كنا نحبها ونحترمها ونسعى لتكمل ذاتها فليس ذلك إلا صورة من حبنا واحترامنا لأنفسنا وسعينا فى تكميل ذاتنا".

ولقد لقيت دعوة الطاهر حداد سخطًا عنيفًا من البيئة الفكرية والاجتماعية

فى ذلك الحين ، ولكنها لقيت التأييد الكامل من الشابى ، فقد كان الشابى ثائرًا بعقله وقلبه على الوضع الذى تعانيه المرأة فى المجتمع التونسى ، وكان ثائرًا على وضع المرأة فى الأدب العربى القديم ، فالشاعر القديم ، لم يكن يفهم من المرأة كما يقول الشابى : "إلا أنها جسد يشتهى ، ومتعة من منع العيش الدنىء ، أما تلك النظرة السامية التى يمتزج فيها الحب بالإجلال والشغف بالعبادة ... أما تلك النظرة الروحية العميقة التى نجدها عند الشعراء الأوروبيين فإنها منعدمة أو كالمنعدمة فى الأدب العربى لا أستثنى إلا الأندر الأقل على الرغم من أن أكثره "أى الأدب العربى" فى المرأة ... لم يعرف العرب ولا الشاعر العربى تلك النظرة الفنية التى تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء يلتمس لديها الوحى والإلهام ، ولم يحاول الشاعر العربى أن يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة تحمل بين جنبيها سعادة الحب ، ومعنى الأمومة وهما أقدس ما فى الوجود" .

هذا هو ما قاله أبو القاسم فى كتابه "عن الخيال الشعرى عند العرب" وهذه آراء لا يمكننا أن نوافق الشابى على صحتها المطلقة لما تتضمنه من تجاهل لمدرسة كاملة ورائعة من مدارس الشعر العربى ، هذه المدرسة هى مدرسة "الحب المثالى" أو "الحب العذرى" ، على أن الذى يهمنا هنا هو أن كلمات الشابى تدل على ثورته على وضع المرأة العربية ، ولقد حاول الشابى فى شعره أن يعبر عن ثورته العقلية على وضع المرأة فى المجتع العربى ووضعها فى الأدب ، وأن يستجيب فى الوقت نفسه لظمئه الروحى إلى مثال رفيع للمرأة يملأ قلبه ويغنى مشاعره . ولذلك جاء شعره عن المرأة معبرًا عن الجانب الإنسانى الرفيع فيها ، يحمل معنى القدسة للمرأة ، ويربط بينها وبين أجمل ما فى الطبيعة من مظاهر ، ويغنى لمعنى الحبِ ، ويجد فى هذا المعنى دفئًا ، ويجد فيه أيضًا عالمًا سحريًا رقيقًا يعطيه من صور الحياة ما يفوق الجمال الحسى الملموس بصورة

كبيرة . والعلاقات العاطفية فى حياة الشابى غامضة ، فلا توجد معلومات دقيقة عنها ، غير أن الكتاب الذين عاصروه وعرفوا كثيرًا من حقائق حياته مثل الأستاذ "زين العابدين السنوسى" يؤكدون أنه عرف الحب فى شبابه الأول ، وكانت حبيبته فتاة تربى معها فى بلدته "الشابية" ، وعندما سافر الشاعر إلى تونس للدراسة استولى على هذه الفتاة غمّ شديد أدى بها إلى الموت بسبب فراق حبيبها ، وقد حزن الشابى عليها حزنًا عميقا كان - فيما يقول صديقه زين العابدين السنوسى - سببًا من أسباب مرضه الذى أدى به إلى الموت . تزوج الشابى بعد ذلك وأنجب من زوجته قبل أن يموت طفلين هما : محمد الصادق الذى عمل ضابطا فى سلاح المشاة بالجيش التونسى وقد ولد سنة ١٩٣٠ ، أما الابن الثانى فهو "جلال" وقد ولد فى أول سنة ١٩٣٤ وقبل وفاة والده .

هذه هى كل المعلومات المعروفة عن حياته العاطفية ، وهى معلومات ناقصة مليئة بالفجوات التى تحتاج إلى تفسير معقول ، كما أنه ليس هناك إجابة دقيقة عن الأسئلة التى تثور حول زواجه ، وخاصة هذا السؤال الرئيسى : هل تم هذا الزواج عن حب أم أنه كان زواجًا تقليديًا ؟ .

ولكن الذى يقوله لنا شعره هو أنه ظل يغنى للحب حتى آخر لحظة فى حياته ، وغناؤه هو غناء الحرمان والشوق إلى مثل أعلى لم يتحقق فى حياته للمرأة ، وهو غناء الذى يؤمن أن الحب هو معنى أساسى من معانى الحياة وأنه أرقى طريق للخلاص من مشاكلها وعذابها .

والحب عند الشابى حب رومانسى صادق ، وأول مظاهر الرومانسية فيه هو المثالية الكاملة ، فالمرأة التى يحبها هى امرأة من صنع خياله السامى ... إنها امرأة مثالية "تتكون" من الأحلام والأطياف والزهور ، وهى ليست من جسد بل من روح شفافة ، وليست مزيجًا من الخير والشر ، ولكنها من خير مطلق

وصفاء مطلق ، وحبها ليس حبًا حسيًا ، بل إنه لا يختلط أبدًا بأى معنى من معانى الحس ، إنه حب روحى شفاف يسمو فوق نداء الغريزة ويختلف عن ذلك الحب العادى الذى يعرفه الناس .

وهذه المثالية فى الحب ، والتى يمثلها الشابى تمثيلاً فنيًا صادقًا ، هى ظاهرة مشتركة بينه وبين الفنانين الرومانسيين فى الأدب الإنسانى كله ، إنه حب "شيلى" و "وردزورث" و "دى موسيه" وغيرهم من شعراء الرومانسية الأوروبية الكبار ، فكل هؤلاء الشعراء يشتركون فى سخطهم على الواقع وهروبهم منه إلى عالم خيالى مثالى للحب تعيش فيه أحلامهم عن المرأة الكاملة كأنها حقائق الحياة الثابتة الوحيدة التى يرونها ويعترفون بها .. إنهم يعوضون ما يحسونه من نقص فى واقع الحياة بما فى أحلامهم من كمال ومثالية .

ولعل مثالية الحب عند الشابى لم تتفتح مثلما تفتحت فى قصيدته المشهورة "صلوات فى هيكل الحب" ففى هذه القصيدة صورة شفافة رقيقة للمرأة ، وكأنها امرأة تجيء من عالم ملائكى سحرى لم يعرفه البشر .

يقول الشابى فى هذه القصيدة :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام ... كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ... كالورد ، كابتسام الوليد
يا لها من من وداعة وجمال ... وشباب منعم أملود
يا لها من طهارة ، تبعث التقديس ... فى مهجة الشقى العنيد
يا لها رقة تكاد يرف الورُ ... دُ منها فى الصخرة الجلمود
أنت ما أنت ؟ أنت رسم جميل ... عبقرى من فنّ هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وسحر ... وجمال مقدس معبود

ويستمر الشابى فى القصيدة على هذه الطريقة فى الإحساس والتصوير الفنى ، وكل صور المرأة عنده لا تختلف عن هذه الصورة الملائكية الكاملة التى تجمع أجمل ما فى العالم ، وتمثل كل المعانى الإنسانية الراقية الشفافة .

وإذا كان الحب عند الشابى عاطفة مقدسة تتجه إلى كائن مقدس هو المرأة ، فإن هذا الحب المثالى هو حب حزين لأنه يصطدم بعقبات ومشاكل تجعل منه حبًا يائسًا (فاجعًا) فالحب فى كثير من قصائده يقترن بالموت ، إن هناك دائمًا عقبة تعترض هذا الحب وتحوله إلى مأساة .

والحب الفاشل "التراجيدى" هو الحب الشائع المعروف عند الرومانسيين لأنه يغذى فيهم ذلك الشعور القريب إلى نفوسهم وهو شعور الحزن ، وهذا النوع من الحزن أيضًا هو منطق طبيعى لأحلام خيالية تصطدم بقوانين الواقع ، ولو عدنا إلى الإنتاج الأدبى الرومانسى المعروف لوجدناه دائمًا مستمدًا من عذاب الحب الفاشل ... ففى "غادة الكاميليا" لألكسندر دوماس يفشل الحب بسبب معارضة أسرة البطل لزواجه من حبيبته لأنها ذات سمعة سيئة ، وفى "هيلويز الجديدة" لجان جاك روسو يموت الحب بين الحبيبين لاختلاف الطبقة الاجتماعية بينهما ... وهكذا يصطدم الحب دائمًا بعقبة من العقبات فيصبح حبًا باكيًا حزينًا فاشلاً .

وفى شعر الشابى نجد هذه الظاهرة بوضوح فى كثير من قصائده ... يقول فى قصيدة "الذكرى" :

كنا كزوجَى طائر فى دوحة الحُب الأمين

نتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصون

متغردَين مع البلابل فى السهول وفى الحزون

ملأ الهوى كأس الحياة لنا ، وشعشعها الفتون
حتى إذا كدنا نرشِّف خمرها ، غضب المنون
فأراق خمر الحُب فى وادى الكآبة والأنين
وأهاب بالحب الوديع ، فودّع العيش الأمين
وشدا بلحن الموت فى الأفق الحزين المستكين
ثم اختفى خلف الغيوم كأنه الطيف الحزين

وفى قصيدة أخرى عنوانها "جدول الحب" يقترن الموت بالحب أيضًا :

قد كان لى ما بين أحلامى الجميلة جدول
يجرى به ماء المحبة طاهرًا يتسلسل
تسعى به الأمواج باسمة كأحلام الصبا
بيضاء ، ناصعة ، ضحوكًا مثل أزهار الربى
مياسة كعرائس الفردوس بين حقوله
تتلو أناشيد المنى فى مده وقفوله

قد كان ذلك كله بالأمس ! بالأمس البعيد
والأمس قد جرفته مقهورًا يد الموت العتيد

وكثير من قصائد الشابى عن الحب تعبر عن نفس المأساة : مأساة اقتران الحب بالموت ، وذبول الزهور على يد الخريف القاسى الذى يحمل إليها رياح العدم الصفراء فتقضى على كل ما فيها من علامات الحياة .

ولكنه رغم ذلك كله يشعر أن معنى الحياة الرئيسى هو الحب ، بل إن الموت لا يصبح موتًا إلا لأنه يقضى على الحب ، كأن الحب عند الشاعر قد أصبح هو المعنى الوحيد للحياة ... أو كأنه مرادف جديد لكلمة الحياة ، وفى قصيدته الجميلة "أنا أبكيك للحب" يقول الشابي :

لست يا أمسى أبكيك لمجد أو لجاه
سلبته منىَ الدنيا وبزّتنى رداه
فأنا أحتقر المجد وأوهام الحياة
أو لعمرٍ ، بلغت منه الليالى منتهاه
وتلاشت فى خضم الزمن الطاغى قواه
فأنا ما زلت فى فجر شبابى أو ضحاه
إنما أبكيك للحب الذى كان بهاه
يملأ الدنيا فأنّى سرت فى الدنيا أراه

ففقدان الحب، هو المأساة التى يعانى منها والتى تحمل إلى قلبه وحياته ريح العدم ... وهى التى تجعله يبكى على الأمس وعلى الحياة .

وعند الشابى قصيدة تحمل صورة جديدة للمرأة هى : المرأة الأم ، وهذه القصيدة تعتبر من أجمل شعره بما فيها من صور حية ، وعاطفة حارة صادقة... تلك القصيدة هى "قلب الأم" ، وفيها يصور وفاء الأمومة وثبات عواطفها ، وعاطفة الأمومة هنا أيضًا عاطفة مصدومة حزينة فقد مات "الطفل" ونسيه الصحاب الصغار ، ونسيته الطبيعة ، ولكن قلب الأم مازال يذكره ، وما زال باقيًا على حبه وحزنه :

كـــل نســــوك ولم يعـــودوا يذكرونـــك فى الحيــــاة
والدهـــر يدفـــن فى ظـــلام المـــوت حـــتى الذكريــــات
إلا فـــؤادًا ظـــل يخفــــق فى الوجـــود إلى لِقـــاك
ويـــود لــــو بـــذل الحيــــاة إلى المنيـــة وافتـــداك
فـــإذا رأى طفـــلا بكـــاك ، وإن رأى شــــبحًا دعـــاك
يصغـــى لصوتـــك فى الوجــــود ولا يــــرى إلا بهـــاك
يصغـــى لنغمتــــك الجميلــــة فى خريــــر الســــاقية
فى رنـــة المزمــــار ، فى لغـــو الطيـــور الشـــادية
فى ضجـــة البحـــر المجلجـــل فى هديـــر العاصفـــة
فى لجـــة الغابـــات ، فى صـــوت الرعـــود القاصفـــة
فى نُغيـــة الحمـــل الوديـــع وفى أناشـــيد الرعـــاة
بين المروج الخضر والسفـــح المـجلّـــل بالـــنبـــات

ويستمر الشابى فى الربط بين قلب الأم الحزينة وبين صور الطبيعة ومعانيها المختلفة حتى تصبح أحزان الأم متصلة بكل ما فى الوجود ، دائبة فيه ، وبهذه الطريقة يرتفع قلب الأم فى القصيدة حتى يصبح قلبًا مقدسًا ، شديد الرحابة والشمول ، عميق الإنسانية بصورة لا يعرفها أى قلب بشرى آخر .

هذه هى المرأة عند الشابى وهذا هو الحب .. إن المرأة هى الملاك الحنون الذى يهبط من عالم الخيال السحرى ليشفى الجراح ، ويحمل رحيق الوجود المقدس إلى القلوب التى تبحث عن مأوى وتحلم بالدفء ... وهذا هو الحب: زهرة الأزهار ومعنى المعانى فى هذه الحياة ... إنه شىء مثالى شفاف لا يكاد

يلمس الأرض بقدميه ، بل هو عال رفيع يطير فى السماء ، نقى صاف لم يتلوث بالتراب أو بتجارب الواقع ، وهو حب حزين برغم ذلك لأن الموت مثل الثعبان الذى يختفى فى زوايا الحياة ليلدغ الزهور الجميلة ويقضى عليها وهى فى روعة شبابها السحرى العميق .

وهذه النظرة الرفيعة للمرأة والحب كانت خير مساندة فنية لدعوة تحرير المرأة فى تونس وفى الوطن العربى بشكل عام ، وهذا الأثر الاجتماعى البارز للشعر الرومانسى فى معركة تحرير المرأة شبيه تمامًا بالأثر الذى تركه الأدب الرومانسى فى المجتمع الأوروبى ، فقد كان تقديس الرومانسيين للحب واعتباره العلاقة الإنسانية الوحيدة التى تربط الرجل بالمرأة ، بحيث لا يصح أن يقوم الزواج على غير هذه العلاقة العميقة ، فلا شىء يسمو على شريعة الحب وقانون الحب ... كانت هذه النظرة الرومانسية للحب هى السبب الأساسى فى إقرار الزواج المدنى فى المجتمع المسيحى الأوروبى ، والزواج المدنى هو ثورة على القوانين التى تجعل الزواج المسيحى "صداقة أبدية" كما قال البعض ، وهى القوانين التى سمتها جورج صاند "قوانين البؤس والعبودية" لأنها تفرض على المرأة الاستمرار فى الزواج حتى ولو اكتشفت أنها لا تحب زوجها.

والزواج المدنى ليس الثمرة الوحيدة للأدب الرومانسى فى أوروبا ، بل كانت ثمرة هذا الأدب - بالإضافة للجهود الفكرية والاجتماعية والسياسية الأخرى - هى خروج المرأة إلى ميدان العمل وحصولها على كل حقوقها السياسية والاجتماعية فى المجتمع الأوروبى .

هاربٌ إلي الغاب

عندما ماتت ابنة الفنان الرومانسى الفرنسى العظيم فيكتور هيجو ، أحس الفنان بالحزن ، وأحس بأن الغربة القاسية عن هذا العالم تعتصر قلبه ، ولم تستطع كلمات العزاء أن تخفف عنه شعوره الحزين المرير ...

وأخيرًا وجد العزاء يقبض على قلبه لا من ألسنة الناس ولكن من لسان آخر هو لسان الطبيعة. لقد خرج "هيجو" إلى الغابات والحقول ، وتأمل الليل والقمر والنجوم ، ثم كتب قصيدة رائعة أملتها عليها رؤاه وهو يتجول فى عالم الطبيعة ، يمزج روحه بمظاهرها المختلفة ... ويقول فى هذه القصيدة :

"الآن وقد نأت عن عينى باريس : شوارعها وقصورها وضبابها وسطوحها / الآن بين أفنان الأشجار / أستطيع أن أفكر فى جمال السماوات / الآن فى ظلمة الحداد التى ملأت نفسى أخرج ظافرًا شاحب اللون / وأحس بسلام الطبيعة الجليلة يتسلل إلى قلبى / الآن وأنا جالس على الشط ذى الأمواج / مروعًا بهدوء الأفق وجلاله / أستطيع أن أثير فى نفسى الحقائق العميقة / وتأمل الزهور بين الأعشاب ... الآن وأنا ضعيف ضعف المرأة / أسجد بين يديك يا إلهى وتحت سماواتك الصافية وقد أضاءت روحى فى بلواها نظراتى إلى عالمك من حولى(1) " .

هذه النظرة المتصوفة نحو الطبيعة ، هى نظرة الرومانسيين ... إنهم يهربون

---

(1) ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال فى كتابه "الرومانتيكية " .

من زحام الحياة وزحام العلاقات الإنسانية ، ليعيشوا فى وحدة عميقة مع نفوسهم ، يتأملون ويفكرون ، ويجدون العزاء عن عذابهم وضيقهم بالحياة ، بل يجدون المعنى الصحيح للحياة ، إن الطبيعة هى معبد الرومانسى ، وهى سعادة روحه ، وخلاصه من عذابه وألمه ... ولقد دعا أبو الرومانسية الأوروبية جان جاك روسو للعودة إلى الطبيعة وعبادتها ، ففى الطبيعة توجد الفطرة الإنسانية بدون تشويه ولا تكلف ، لأن الطبيعة ترفض الاصطناع والحذلقة ، وفى أحضان الطبيعة تصفو النفس البشرية وتعود إلى شعورها الصحيح السليم بالحياة .

وقد ربط بعض النقاد بين الدعوة إلى عبادة الطبيعة والدعوات السياسية الثورية التى انطلقت فى الغرب على أثر ظهور الحركة الرومانسية ، فحب الطبيعة خلق نوعًا من الوعى والانتباه إلى أكبر عابد مترهب فى محراب الطبيعة وهو : الفلاح ، فالفلاح هو الذى يعيش فى الحقول ، ويزرع القمح والورد ، وكان الفلاح قبل الثورة الفرنسية فى المجتمع ، وقبل الثورة الرومانسية فى الأدب ، ضائعًا بلا حقوق ، وكان النظام الذى تخضع له الأرض هو الإقطاع، - أى ملكيات كبيرة من الأرض يسيطر عليها بمن فوقها من المزارعين والفلاحين مجموعة قليلة من الأفراد - ولكن الاهتمام بالطبيعة فى الأدب الرومانسى أبرز شخصية الفلاح وساعد على الخطوات التى خطتها الثورة الفرنسية وحطمت بها الإقطاع لا فى فرنسا وحدها بل فى أوروبا كلها تقريبًا .

فالطبيعة بالنسبة للرومانسيين كانت اكتشافًا اهتموا به اهتمامًا كبيرًا ، وكان هذا الاهتمام بالطبيعة سببًا من أسباب الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى الشامل فى حياة الفلاح ، كذلك كان هذا الاهتمام بالنسبة للرومانسيين طريقًا للخلاص من الألم ، وكان عزاء للنفس الرومانسية الرقيقة الخيالية التى تفزعها مأساة الحياة وأحزانها .

وأبو القاسم الشابى شاعر رومانسى أصيل ، ولذلك فنحن نجد أن الطبيعة تحتل فى شعره مكانة مهمة بارزة ، إنها الأم الحانية ، والملجأ الأول والأخير... وقد كان الشابى بحاجة إلى أم تحنو عليه وبحاجة إلى ملجأ يؤويه ، ذلك لأنه كان على خلاف حاد مع الحياة الواقعية ، وكان يعيش فى خصومة عميقة مع المجتمع ، وكان طموحًا إلى حياة أكثر حرارة ويقظة بين جميع أبناء شعبه ، وكان فوق هذا كله مريضًا بقلبه ، يزحف الموت إلى حياته لحظة بعد لحظة، وكان يحس بأن رغبته فى الحياة مهددة دائمًا بقوة الموت الزاحف إليه ... كل هذه الأسباب جعلته حزينا ، ودفعته إلى البحث عن عالم يذوب فيه بشخصه وأحاسيسه وأفكاره ، فيخفف عنه ، ويرفعه إلى شعور جديد بحيث يجد فى الألم لذة ، وفى متاعب الحياة اليومية شيئًا صغيرًا يتضاءل أمام الشعور السامى الذى يعيش فيه .

وفى الطبيعة وجد الشابى عالمه الجميل النقى ، كما وجد "هوجو" من قبل عزاءه وخلاصه – بعد موت ابنته – فى الطبيعة . وفى قصيدة الشابى المشهورة "النبى المجهول" يعبر الشابى عن أزمته مع شعبه ، حيث لا يفهمه الشعب ، ولا يستجيب لأفكاره وآرائه التى تهدف إلى تحريره المعنوى والمادى ... عندما تصل به الأزمة إلى أعلى درجاتها لا يجد ملجأ سوى الطبيعة ومظاهرها المختلفة ، يقول فى قصيدة "النبى المجهول":

إننى ذاهب إلى الغاب يا شعبى   لأقضى الحياة وحدى بيأسى

وعندما تنتهى حياته ويموت ، فهو يفضل الموت فى الغاب ، فالغاب بما فيه من طيور وأشجار أحنى عليه من الناس :

ثم تحت الصنوبر النـــاضر الحلــو تخـط السـيول حفـرة رمســـى
وتظل الطيور تلغو علـــى قـبرى ويشــدو النسـيم فوقــى همــس
وتظل الفصـــول تمشـــى حــوالىَ كمــا كـــنّ فى غضـــارة أمســـى

فالشابى يجد خلاصة الروحى فى الطبيعة ، ولذلك فـــهو يعيــش بخيالـه وحواسه ومشاعره كلها فى الطبيعة ، ويستمد صوره الفنية من الطبيعة قـــبل أن يستمدها من أى شيء آخر .

والطبيعة عند الشابى خير مطلق وجمال مطلق ، وكأنه بهذا الإحساس نحـــو الطبيعة يجعل منها عالمه "المثالى" الكامل الذى "يعوضه" عن العـــالم الواقعـــى الناقص المليء بالشر والقبح والحزن ، فإذا كان قد فقد الأصدقاء فسوف يجـد الصداقة والفهم عند الطيور .

سوف أتلو على الطيور أناشـــيدى وأفضـــى لهـــا بأشـــواق نفســـى
فهى تدرى معنى الحيـــاة وتـــدرى أن مجـــد النفـــوس يقظـــة حـــسٍّ

فالطيور عنده تدرى معنى الحياة الذى لا يدريه أبنـــاء مجتمعـــه ، ويقظـــة الإحساس التى تفهمها الطيور لا يفهمها البشر الذين يعيشون حولـــه ... إن "يقظة الإحساس" عند الشابى هى جوهر الحياة .

وهكذا ، فكل المعانى التى فقدها فى الحياة مع الناس وجدها فى الطبيعـــة : الصداقة والفهم والحب والحنان والجمال . إن الطبيعة هى عالمه المثالى الـــذى يرد به على نقص الحياة الاجتماعية وقصورها عن الوصول إلى الكمال .

على أن أهم ظاهرة فى شعر الطبيعة عند الشابى هى أنه أعطى الطبيعة "معنى إنسانيًا" ، وهذه الظاهرة لا ينفرد بها الشابى فهى تتكرر كثيرًا عند كبار الشعراء الذين عبروا عن الطبيعة أو صوروها فى شعرهم ، ولقد كان الشابى واحدًا من هؤلاء ... لم يكن يحب الطبيعة المجردة ، و لم يكن يجد فيها جمالاً خاصا مستقلاً عن الإنسان ، بل إن كل جمال فى الطبيعة إنما يستمد وجوده من "معنى إنسانى" ، وهذه الظاهرة تثبت ما أشرنا إليه من أنه كان يبحث فى الطبيعة عن الجمال والكمال المفقودين فى المجتمع والحياة الإنسانية التى يعيشها. فقد اقتنع بخياله وإحساسه الحاد أن الطبيعة "مجتمع" آخر متناسق يقوم على أساس من نفس المشاعر التى تقوم عليها الحياة الإنسانية . والطبيعة هنا تنطق بلسان الشابى وتقول كل ما آمن به من أفكار ، وكل ما امتلأ به قلبه من عواطف وأحاسيس . فالحبيبة فى قصيدة "صلوات فى هيكل الحب" عذبة "كالورد ، كالصباح الجديد ، كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء "... وفى القصيدة نفسها يخاطب الشابى حبيبته بمثل هذه الصور المستمدة من الطبيعة أيضًا : "أنت فجر من السحر" "أنت روح الربيع" ... كلها صور مستمدة من الطبيعة ، ولكن لتوضيح عاطفة إنسانية وجمال إنسانى ، لتوضيح عاطفة الحب وجمال المرأة المحبوبة .

وفى قصيدة "قلب الأم" عندما يموت الطفل تذوب روحه فى كل مظاهر الطبيعة ، وتنظر الأم المحزونة هنا وهناك ، فترى صورة ابنها وصوت ابنها وروح ابنها ، ترى هذا كله لأن ابنها لم يدفن فى قبر بل انساب فى الأزهار والأشجار وأصوات الطيور :

ويراك فى صور الطبيعة : حلوها ودميمها
وحزينها وبهيجها ، وحقيرها وعظيمها

فى رقـــة الفجـــر الوديـــع ، وفى الليــالى الحالمـــة
فى فتنــة الشــفق البديــع وفى النجــوم الباسمـــة
فى رقــص أمــواج البحــيرة تحــت أضــواء النجــوم
فى سحــر أزهار الربيـــــع ، وفى تماويــل الغـيــوم

وهكذا ترتبط الطبيعة بعاطفة الأم نحو ابنها ، وبذلك تأخذ الطبيعة معـنى إنسانيًا واضحًا ، وفى الوقت نفسه تصبح عاطفة الأم ثابتة خالدة مثل مظـاهر الطبيعة نفسها .

وفى قصيدة "إرادة الحياة" ينادى الشابى الشعب ويدعوه إلى اليقظة والثورة، ثم يجعل الطبيعة تنطق بأفكاره فيقول على لسان الريح :

ودمدمت الريح بــين الفجــاج ... وفوق الجبــال وتحــت الشــجر:
"إذا مــا طمحــت إلى غايـــة ... ركبــت المــنى ونسـيت الحــذر
"ولم أتجنــب وعــور الشــعاب ... ولا كبــة اللـــهب المســـتعر"
"ومن لا يحب صعــود الجبــال ... يعش أبــد الدهر بــين الحفــر"

فالريح تدعو إلى الثورة ، وتحدد للناس طريق الثورة الذى هو طريق الخطـر ونسيان الحذر وخوض اللهب ، وفى نفس القصيدة يصور الشــابى الأرض فى حالة شوق وظمأ إلى الحياة ثم يأتى "الربيع" فتتفجر الكائنـــات ، وينشـق التراب عن كثير من مظاهر الحياة ، وكأن الربيع الذى ملأ الأرض هو الثـورة التى يدعو إليها الشابى مجتمعه ، ليتحرر هذا المجتمع من جدبه ويصبح مجتمعًـا خصبًا مليئًا بمظاهر الحياة ، مثل الأرض فى الربيع .

يقول الربيع للحياة فى نداء حار جميل يوجهه إلى الأرض :

إليك الفضاء ، إليك الضيـــاءُ ، إليــك الـثرى الحـالم المزدهــر
إليك الجمــال الــذى لا يبيــد ؛ إليــك الوجــود الرحيــب النضــر
فميدى كما شئت فوق الحقــول ، بحلــو الثمــار وغــض الزهــر
وناجى النسيم ، ونــاجى الغيــوم ، ونــاجى النجــوم ، ونــاجى القمــر
وناجى الحياة وأشواقهــا ، وفتنــة هـــذا الوجـــود الأغــر

وتستجيب الأرض لثورة الربيع ، وهى الثورة التى يتمنى الشابى أن يتعلـم منها المجتمع ، إنه درس تلقيه الطبيعة على الحياة الإنسانية ، وعلى النـاس : أن يتعلموا معنى الثورة من الأرض والربيع ... من الطبيعة !

هناك قصيدة أخرى للشابى تعتبر من أهم قصائده هـــى قصيـــدة "الجنــة الضائعة" وتلك هى جنة طفولته التى كانت مليئة بالــبراءة والعذوبــة والــتى أضاعتها الحياة وسلبتها منه ، وهو يرسم سعادة الطفولة فى تلك العلاقة القويـة بين الطفولة والطبيعة ، فالطفولة فطرة نقية ، وهما مثال خالص للجمال .

إنه يذكر هذه الطفولة :

أيــام كـــانت للحيـــاة حـــلاوة الـــروض المطـــير
وطــهارة المــوج الجميــــل ، وبحـــر شـــاطئه المنــير
ووداعــة العصفــور ، بــين جــــداول المــــاء النمــير
أيــام لم نعــرف مــن الدنيــا ســوى مــــرح الســرور
وتتبــع النخــل الأنيـــق وقطـــف تيجـــان الزهــور
وتســلُّق الجبـــل المكلـــل بـــالصنوبر والصخـــور

وبنـــاء أكـــواخ الطفولـــة تحـــــت أعشـــــاش الطيـــور

مســـقوفة بـــالورد ، والأعشـــــاب ، والـــــورق النضـــير

نبـــنى فتهدمـــها الريـــــاح ، فـــــلا نضـــج ولا نثـــور

ونعود نضحـــك للمـــــروج وللزنابــــــق والغـــديـــــر

وتضيع منه جنته ويقابل الحياة العملية الشاقة ، فتسحق أحلامه ، ويكتشف أن طبيعة الإنسان ليست هى الخير المطلق بل هى مزيج من الخـــير والشـــر ، وتصدمه هذه الحقيقة ، فقد كان يظن أن صورة الحياة والإنسان التى أحســـها فى طفولته هى الصورة الواقعية التى سيقابلها بعد ذلـــك فى مراحـــل الحيـــاة المختلفة ، ولكن صورة الطفولة كانت على العكس حلمًا وخيالاً بلا رصيـــد فى دنيا الواقع ، وكانت النتيجة هى الصدمة النفسية التى أخذ يعانى منها حـــتى مات ... لقد ضاعت جنته وهو اليوم يعيش فى الجحيم :

واليـــوم أحيـــا مرهـــق الأعصـــاب مشـــــبوب الشـــعور

متـــــأجج الإحســـــاس أحفـــــل بـــــالعظيم وبالحقـــــير

تمشـــى علـــى قلـــبى الحيـــاة ، ويزحـــف الكـــون الكبـــير

هذا مصيرى ، يا بـــنى الدنيـــا ، فما أشقـــى الـــمـــصـــير

وللشابى قصيدة أخـــرى تعتـــبر مـــن قصـــائده المهمـــة أيضًـــا هـــى "من أغانى الرعاة" وفى هذه القصيدة يغنى للطبيعة بنفس طريقته ، فهو يضفـــى عليها طابعًا إنسانيًا، فالراعى يعيش مع خِرافه فى عـــالم مثـــالى ، أو مدينـــة فاضلة، إنه يعيش فى الدنيا الجميلة التى لم يجدها الشـــابى فى الواقـــع ... إن الراعى يقول لخرافه:

لـــن تملّـــى يـــا خـــرافى ، فى حمـــى الغـــاب الظليـــــــل

فزمـــان الغـــاب طفـــل ، لاعـــب ، عـــــذب ، جميـــــل

وزمـــان النـــاس شـــيخ ، عـــــابس الوجـــــه ، ثقيـــــل

يتمشَّــــــى فى مـــــلال ، فـــــوق هاتيـــــك السهـــول

هذه هى المقارنة الأساسية الدائمة التى يعقدها الشابى بين الحياة الواقعيـــة ، وبين حياة الطبيعة ، فعالم الناس أو زمانهم : "شيخ عابس الوجه ثقيل" أما عالم الطبيعة أو زمانها فهر "طفل ، لاعب عذب ، جميل" ... ولذلك فهو يختـــار الطبيعة ويعطيها كل حبه وإيمانه وينصرف عن عالم الناس ساخطًا عليه غـــير مقتنع ولا راض به .

تلك هى "النظرة الإنسانية" للطبيعة والتى يعبر عنها أبو القاسم الشـــابى فى شعره ، فالطبعة تكتسب روعتها وقيمتها من الصلة بينها وبين الحياة الإنسانية فهو يهرب إليها لأنها تحتوى على الجمال والتناسق الذى لم يجـــده فى الحيـــاة الإنسانية ، وهى التى تحمل إلى قلب الأم الحنان والعزاء ، بعد أن مات الطفل، واتحدت روحه البريئة مع مظاهر الطبيعة المختلفة ، والحب الأول للشـــاعر - وهو حب الطفولة - كان جنة شبيهة بروعة الطبيعة وسحرها ولكنه فقـــده الآن ، فهو بدون جنة وبدون حب ، وحتى معنى الثورة يجـــده شـــاعرنا فى الطبيعة ، فالطبيعة تثور على القفر والجدب والعقم ، وليس الربيع الذى يحمـــل الازدهار والاخضرار إلى الأرض ، والصفاء الجميـــل إلى الجـــو والســـماء ، والحيوية والنشاط للفراشات والطيور ... ليس هذا الربيع إلا "ثورة الطبيعـــة" التى يجب أن يتعلمها الناس ، ويقلدوها تقليدًا أصيلاً حتى يتخلصوا من كـــل مظاهر الموت الذى تخلصت منه الطبيعة عندما تخلصت من العقـــم والجـــدب والقفر.

والراعى إنما هو إنسان مثالى ، يعيش فى وسط الطبيعة حياة سعيدة ، وليس هذا الراعى إلا المثل الأعلى للإنسان عند الشابى ، وليست الطبيعة سوى المثل الأعلى للمجتمع ..... فكأن "الطبيعة" و "الراعى" هما مدينة أفلاطون الفاضلة ، أو جمهوريته المثالية ، حيث يقترح أفلاطونِ تعديل الحياة الاجتماعية والثورة على الواقع الإنسانى لتكميله من النقص الذى يعانيه ، ولإزالة معانى القبح والشر والضعف ، وتحقيق الجمال والخير والقوة .

تلك هى خلاصة نظرة شاعرنا للطبيعة ، وذلك هو سر حبه لها وهروبه إليها ، ففيها الكمال الذى يحلم به ، والحنان الذى لم يجده فى المجتمع ، والثورة التى لم يقم بها الشعب ، والبراءة التى مزقها الواقع وأفسد معناها الجميل ، وفيها أخيرًا التناسق والحيوية ، وهما من أرقى الصور التى يحلم بها الشاعر للحياة ، ويحملها على الدوامِ فى قلبه الرقيق النبيل .



سارِقُ النار

كتب الشابى عددًا من القصائد المهمة تدور كلها حول فكرة "إرادة الحياة" وكتب قصائد عن فكرة "الموت" وكتب أيضًا قصائد عن فكرة لا نستطيع تسميتها إلا بأنها فكرة "البقاء للأقوى" وفى هذه القصائد يمجد القوة ويثبت أنها سر الحياة .

وهذه الأفكار الثلاث لم تظهر فى شعره بصورة عرضية ، بل ظهرت بصورة قوية تدل على أنها كانت أفكارًا تشغل عقله وقلبه ، ولم تكن مجرد خواطر تمر بباله فيسجلها فى بيت أو بيتين كما كان الشعراء التقليديون يفعلون ، فشوقى مثلاً عندما أراد أن يعبر عن فكرة "البقاء للأقوى" كتب هذا البيت :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ومع ذلك فلا يمكن أن نقول إن شوقى كان يدعو إلى هذه الفكرة أو ينادى بها فمن الصعب أن نجد فى شعره بيتًا آخر بهذا المعنى ، وإذا وجدنا بيتًا أو عدة أبيات ، فإننا لن نجد قصيدة كاملة تدعو إلى هذه الفكرة ، فالفكرة كانت بالنسبة له مجرد خاطر من الخواطر ، ولم تكن نظرية تشغله وفلسفة تملأ حياته .

على العكس كان الشابى ، فهو شاعر فكرة شاملة ، وليس مجموعة من الخواطر المتناثرة المبعثرة ، ومما لا شك فيه أن حياته القصيرة لم تتح له أن يبلور فكرته الشاملة ويصعد بها إلى مستوى النظرية الكاملة ، ولكن الحقيقة - كما أشرنا من قبل - أنه واحد من الشعراء العرب النادرين ، سواء فى العصر الحديث أو العصور القديمة ، والذين حاولوا أن يكون لهم فكرة شاملة عن الحياة والإنسان ، وحاولوا أن يكتبوا شعرهم بوحى فلسفة تفسر لهم العالم ، ويحكموا بها على الأشياء ، وحاولوا أيضًا أن تكون هذه الفلسفة عميقة الجذور ، تمس المشاكل الجوهرية فى الحياة الإنسانية ولا تقف عند المسائل السطحية والحكمة الساذجة الشائعة على جميع الأفواه ، والتى تشبه "أقراص الأسبرين" التى تسكن الألم السريع تسكينًا عاجلاً ، ولكنها لا تعالج الآلام الكبيرة ، وليس لها علاقة بتجارب الشعور الضخمة .

لم تكن فلسفة الشابى "قرص أسبرين" بل كانت إحساسًا كبيرًا ، وحلمًا بعالم مثالى فكر فيه الشاعر وأراد أن ينادى به دائمًا ، وكانت أيضًا نظرة كلية إلى الإنسان فهو يؤمن بإنسان مثالى يدعو إلى وجوده بحرارة .

فمن أفكاره الهامة فكرة "إرادة الحياة" وهى فكرة أحسها أولا ، ولكنها تبلورت عنده خلال قراءاته لجبران خليل جبران ، الذى نقل هذه الفكرة إلى الثقافة العربية عن مصدرها الأصلى ، وهو : الفيلسوف الألمانى نيتشه ... فجذور فكرة الشابى عن إرادة الحياة تعود إلى طبيعته الخاصة أولاً ، ثم تعود إلى منبعها الثقافى وهو نيتشه .

وبالإمكان أن نلاحظ فكرة (إرادة الحياة) التى عبر عنها الشابى ، ودعا إلى أن ينتفض من خلالها الشعب والإنسان ، ويحاولا أن يتخلصا بها من أوضاعهما التى تحمل رائحة الموت ... نستطيع أن نلاحظ هذه الفكرة فى بعض العبارات التى تتردد كثيرًا فى شعر الشابى مثل : "شوق الحياة" و "صميم

الحياة" و "عزم الحياة" .

فى قصيدته "الأشواق التائهة" يعبر عن إحساسه بالضياع بسبب بحثه الدائم عن "صميم الحياة" حيث لم يجد تلك الصلة التى تربطه بهذا الجوهر العميق :

يا صميم الحياة ! إنى وحيد … مدلج تائه فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة إنى فؤاد … ضائع ظامئ فأين رحيقك
يا صميم الحياة أين أغانيك … فتحت النجوم يصغى مشوقك ؟

وفى قصيدة أخرى يقول :

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه … عزم الحياة ، إذا ما استيقظت فيه

وفى قصيدته المشهورة "إرادة الحياة") يقول :

ومن لم يعانقه شوق الحياة … تبخر فى جوها واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة … من صفعة العدم المنتصر

وفى قصيدة أخرى عنوانها "إلى الشعب" :

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس؟ … أين الطموح والأحلام ؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان؟ … أين الخيال والإلهام ؟
إن يم الحياة يدوى حواليك … فأين المغامر المقدام ؟
أين عزم الحياة ؟ لا شيء إلا … الموت ، والصمت ، والأسى ، والظلام

ثم يقول فى مقطع آخر من القصيدة مخاطبًا "الشعب" :

يا إلهى ! أما تحس ؟ أما تشـــدو ؟ أمــا تشـــتكى ، أمــا تتكلّـــم ؟
مل نهر الزمـــان أيـــامك الموتـــى وأنقـــاض عمـــرك المتـــهدم

أما قصيدته القوية الناضجة "نشيد الجبار" فهى مليئة بهذا المعنى ، معنى إرادة الحياة رغم العقبات سواء كانت هذه العقبات من المجتمع أو كانت من الطبيعة التى تحمل الموت والفناء إلى الإنسان ، وقد جعل الشابى عنوان هذه القصيـــدة "نشيد الجبار" ، أو "هكذا غنى بروميثيوس" و "بروميثيوس" هو سارق النـــار من الآلهة فى الأساطير اليونانية ، لقد تحمل العذاب الذى فرضته عليه الآلهـة فى الأساطير اليونانية ، لكى يقدم نار المعرفة إلى البشر ، كان قويًا وصاحب إرادة قوية إلى أبعد حد ، واختيار الشاعر لهذه الأسطورة ليستمد منها عنوانه هـــو تعبير عن المعنى العنيف الذى يدور فى نفسه ، وهو أن الإنسان إنما يعيش بقـوة "إرادة الحياة" ، ويعيش بهذه القوة فيتجاوز العقبات والمصاعب والآلام الـــتى تحيط به وتعمل على تحطيمه ، مثلما فعل "بروميثيوس" فقد انتصر علـــى الألم وحقق فكرته وسرق نار المعرفة من الآلهة ليعطيها للبشر.

فى هذه القصيدة يقول الشابى :

سأعيش رغـــم الـــداء والأعـــداء كالنســـر فـــوق القمـــة الشـــماء
أرنو إلى الشمس المضيئة .. هازئًـــا بالســـحب والأمطـــار والأنـــواء
إنى أنا النـــاى الـــذى لا تنتـــهى أنغامـــه ، مـــا دام فى الأحيـــاء

وأنا الخضم الرحب ليس تزيـــده إلا حيـــاة سطـــوة الأنـــواء

....

وأقول للجمع الذيـــن تجشـــموا هدمـــى وودوا لـــو يخـــر بنـــائى

إن المعــاول لا تهــد منــــاكبى والنــار لا تــأتى علــى أعضـــائى

وفى القصيدة تحس بنفس الروح التى كانت تسيطر على نيتشه وهو يطـرح فكرته المعروفة عن إرادة القوة فى كتابه : "هكذا تكلم زرادشت" وإن كانت النزعة العقلية عند نيتشه تمتزج بالنـــزعة الفنية امتزاجًا قويًا ، بينما يعبر الشابى عن فكرته تعبيرًا فنيًا حارًا أكثر مما يهتم بالتعبير الفكرى ، أى أنه لا يفســـر الوجود الإنسانى كله ويناقشه حسب فكرة إرادة الحياة ، بل يكتفى بتمجيـــد هذه الإرادة كحالة من حالات الوجود البشرى .

نجد عند الشابى من الأفكار الفلسفية الأخرى فكرة "الموت" ، وهو يكتـب عن الموت كثيرًا ، ويعبر عنه تعبيرًا فنيًا عميقًا ، فمشكلة الموت تشغله بســبب أزمته الخاصة التى تتصل بمرضه الخطير ، فقد كان يشعر بأن الموت يتســلل إلى حياته ويحاول أن يقضى عليها ولذلك لم يغفل عن الشعور بـــالموت أبــدا ، وسبب آخر من أسباب اهتمامه بمشكلة الموت يتمثل فى الحالة الراكدة الـــتى كان يعيش فيها الشعب من حوله ، لقد كان يجد فى هذه الحـــالة نوعًا مـــن الموت ، فإذا كان الشعور ميتًا والعقل ميتًا فإن الإنسان يكون معدوم الصلـــة بالحياة ، وليست الحياة عند الشابى فى أعلى معانيها إلا يقظة الشعور ويقظـــة العقل . وهكذا كان الموت يواجه الشابى فى كل مكان . كان يواجهه عندمـا ينظر فى داخل نفسه فيجد الموت مزروعًا فى أعز مكان من وجوده ، مكـــان العاطفة والشعور وهو القلب ، وكان يواجهه عندما ينظر إلى تجاربه الخاصـــة

فيجد حبيبته الأولى وربما الأخيرة قد ماتت وبينها وبين عالم الصبا خطوات ، ثم يجد أباه أيضًا قد مات وتركه وسط العواصف قبل أن يبلغ شاطئ الحياة ، ووجد الموت أيضًا ينشر صقيعه القاسى على المجتمع كله ، فالمرأة محجوبة مسجونة فى سجن اسمه البيت ، والحرية السياسية اعتقلها الفرنسيون والباى ، والحرية الفكرية اعتقلتها الكتب الصفراء والتقاليد الفكرية العتيقة ، إنه الموت ، والموت فى كل مكان .

ومن هنا وجد أن الموت هو "وحش" يفترس الأشياء الجميلة فى الحياة ، بل يفترس الحياة نفسها ، ولذلك فقد كان هذا الوحش موضوعًا هامًا لتأملات الشاعر .

ومن الواضح أن تفكير الشاعر فى الموت هو تفكير عميق يرفع الموت إلى درجة المشكلة الأساسية التى تواجهها الحياة ، وإلى درجة المشكلة الفلسفية التى يجب أن يفكر فيها الإنسان ، وهذا الموقف يختلف عن موقف كثير من الشعراء الآخرين وخاصة فى الأدب العربى الكلاسيكى ، فقليلاً ما كان الشاعر يفكر فى الموت كمشكلة فلسفية إنسانية ، بل كان يفكر فيه دائمًا فى مواقف محددة هى مواقف "الرثاء" التى تتصل بحادثة موت معينة لشخص من الأشخاص . أما الشابى فليس فى شعره كله سوى قصيدة رثاء واحدة لوالده بينما بقية قصائده عن الموت إنما تتناوله كمشكلة مستقلة .

وفى قصيدة من أجمل قصائده هى "فى ظل وادى الموت" يتحدث عن الموت بمعنى عميق من معانيه . فليس الموت فى هذه القصيدة هو موت شخص فحسب ، أو هو فناء يتسلل إلى ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، بل معناه العميق الحقيقى هو أن تصبح الحياة فارغة من المعنى ، أن تصبح بلا دلالة معينة ولا غاية معينة ، وعندما تمشى الحياة بلا غاية ، ويتأمل الإنسان الحياة فيجدها هوة فارغة صامتة لا تدل على شىء .. هنا يولد الموت ، ويطل الموت ليصنع

البداية والنهاية :

نحن نمشي وخلفنا هاته الأكـــوان تمشـــى لكـــن لأيـــة غايـــة ؟
نحن نشدو مع العصافير للشـــمس وهـــذا الربيــــع ينفـــخ نايـــه
نحن نتلو رواية الكـــون للمـــوت ولكـــن مـــاذا ختـــام الروايـــة

هكذا قلـــت للريـــاح فقـــالت : "سل ضمير الوجود كيف البدايـــة ؟"
ثم مـــاذا؟ هـــذا أنـــا فى الدنيـــا بعيـــدًا عـــن لهوهـــا وغناهـــا
فى ظـــلام الفنـــاء أدفـــن أيـــامى ولا أســـتطيع حـــتى بكاهـــا
وزهور الحيـــاة تهـــوى بصمـــت محـــزن ، مضجـــر ، علـــى قدميّـــا
جف سحر الحياة ، يا قلبى البـــاكى فـــهيا نجـــرب المـــوت هيـــا

لقد خلت الحياة من المعنى ، وخلوها من المعنى هو الموت ... فلمـــاذا لا يجرب "الشاعر الموت" . إن الموت عنده هو تجربة ، تجربة كبيرة قد تكشـــف عن أشياء جديدة .

والفكرة - الثالثة - التى يهتم بها الشابى اهتمامًا كبيرًا هى فكرة "البقـــاء للأقوى" وهى فكرة أخرى لها صلة بفلسفة القوة عند نيتشه ، وقد أخذهـــا الشابى أيضًا عن جبران ، وأخذها بالذات لأنها تجاوبت مع إحساسه الخـاص ، وتجاوبت مع تأملاته فى الحياة وتأملاته فى الطبيعة ، فالزهرة الضعيفة تذبـــل ، والعصفور الصغير يقضى عليه الثعبان السام ، فالنتيجة التى وصلـــت إليـــها الطبيعة هى نفسها التى تنطبق على حياة الإنسان والشعوب .

وقد عبر الشابى عن هذه الفكرة فى أكثر من قصيدة ، وهذه الفكرة مـــن

أركان فلسفة هذا الشاعر فى الحياة ، فهو يدعو إليها الشعب ويناديه لكى يكون "قويًا" حتى لا تبتلعه الحياة وتقضى عليه ، فالقوة هى ضمان الاستمرار والبقاء .

وأجمل قصيدة عبر فيها الشابى عن هذه الفكرة هى قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس" فقد انقض الثعبان على "شحرور" جميل وافترسه ، وقبل أن يموت العصفور كان يقول : ماذا جنيت أنا فحق عقابى؟" :

لا شىء إلا أننى متغزل بالكائنات مغرد فى غابى

ألقى من الدنيا حنانا طاهرا وأبثها نجوى المحب الصابى

أيُعدُّ هذا فى الوجود جريمة ؟ أين العدالة يا رفاق شبابى ؟

لا أين ؟ فالشرع المقدس هاهنا رأى القوى وفكرة الغلاب

وآخر صرخة يقولها العصفور وهو يلفظ أنفاسه :

لا رأى للحق الضعيف ولا صدى الرأى رأى القاهر الغلاب

هذه هى الأفكار الفلسفية الثلاث التى تتردد فى شعر الشابى ، وتتكون منها نظرته إلى الحياة ، فإرادة الحياة والبقاء للأقوى هما الجانبان الإيجابيان فى هذه الفلسفة ، والحيرة والاضطراب أمام الموت والتفكير العميق فيه باعتبار معضلة أليمة من معضلات الحياة ... ذلك هو الجانب السلبى فى هذه الفلسفة، الجانب الحزين الكئيب الذى يواجه به الشاعر وحشة الحياة ، وفراغ بعض لحظاتها من المعنى ، وانفجار الكارثة فى لحظات أخرى منها ، وهى كارثة بلا مقدمات ولا أسباب معقولة ، إنها أشبه بالكارثة الإنسانية التى أسماها أديب فرنسى هو ألبير كامى باسم "العبث" ، ذلك الشىء المخيف

الذى يبتلع الحياة ، ويذبحها ، ويقضى عليها .

ومرة أخرى نقول : إن الشابى من الشعراء العرب القلائل والقلائل جدًا ، الذين حاولوا أن يصلوا إلى المستوى الفلسفى الرفيع ويتخلصوا من مفهوم الشعر الجميل بألفاظه وأنغامه فقط ، حيث حيث يندفع هذا النوع من الشعراء إلى الحديث فى قصائدهم عن موضوعات تافهة ، ولا بأس أن يقول خواطر متناثرة متناقضة ، فينفى فى المساء ما أثبته فى الصباح . إن الشابى يرفض هذا كله ويعتبر الشعر الجميل حقًا هو وظيفة إنسانية رفيعة ، تتصل بأعماق :

الحياة وأعماق الإنسان ، وتحاول أن تواجه المشكلات الكبرى فى هذا الوجود ، بدلاً من مدح إنسان أو البكاء على طلل من الأطلال أو الاشتراك فى المناسبات السطحية المختلفة .

إنه شاعر فلسفة شاملة عميقة ، وإن كانت ظروفه السيئة لم تتح له أن يصل بهذه الفلسفة إلى النضج الكامل فإنه بلا شك قد سار فى الطريق الصحيح للشعر الرفيع ، ووصل إلى أعلى درجة يمكن أن يصل إليها شاعر عظيم فى مثل سنه وظروفه الصحية والاجتماعية والثقافية ، وهى ظروف أقل ما يقال عنها : إنها كانت ظروفًا عسيرة .

المهزومُ ينتصر

كتب أديب تونسى معاصر للشابى يقول : إنه قرأ للشابى قصيدة فى إحدى الصحف التونسية فسأل صاحب الصحيفة عن الشاعر فقال له الصحفى :

"إنه شاب من طلاب جامع الزيتونة أقلقنى بمقطوعاته المكدسة بمكتبى يرجو نشرها ، وقد رأيت أن آخذ بخاطره فأنشر له هذه القطعة" .

والذى يروى هذه القصة هو الأديب التونسى محمد النيال .

وعندما كتب الشابى قصيدته المشهورة :

إذا الشعب يومًا أراد الحياة   فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلى   ولابد للقيد أن ينكسر

ثار عليه رجال الدين وأثاروا الصحف وجماهير الشعب ضده . فكيف يقول الشاعر : "لابد أن يستجيب القدر" ... كيف يستجيب القدر لقوة الشعب ، بينما القدر لا يستجيب إلا لقوة الله ؟ لقد اعتبر رجال الدين "الشابى" كافرًا ملحدًا ، وهاجموه هجومًا عنيفًا وحاربوه على نطاق واسع .

وعندما كتب الشابى قصيدته "صلوات فى هيكل الحب" وقال فى هذه القصيدة :

أنت أنشودة الأناشيد غناك إله الغناء رب القصيد
أنت قدسى ومعبدى وصباحى وربيعى ونشوتى وخلودى
يا ابنة النور إننى أنا وحدى من رأى فيك روعة المعبود

عندما كتب الشابى هذه الأبيات وقف رجال الدين يقولون عنه إنه "وثنى" فهو يؤمن "بإله للغناء" ومعنى هذا أنه يؤمن بإله "للحب" وإله "للمطر" وغير ذلك مما لم تعرفه إلا العصور الوثنية سواء عند العرب أو عند الإغريق . ومعنى هذه النزعة الوثنية أن الشاعر مشرك لا يؤمن بإله واحد ، وهو بذلك ضد "الوحدانية الإسلامية" .

وبهذا التفسير أيضًا أشعل رجال الدين ثورة ضد الشابى واتهموه بالإلحاد والكفر .

وزادت ثورة العقلية القديمة عليه عندما أعلن رأيه فى الأدب العربى ، وخلاصة هذا الرأى - كما يقول الشابى ، نفسه - :

"لا ينبغى لنا أن ننظر إلى الأدب العربى كمثل أعلى للأدب الذى ينبغى أن يكون ، بل ينبغى أن نعده كأدب من الآداب القديمة التى نعجب بها ونحترمها ، ليس غير . أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا ، لأن لكل عصر حياته التى يحياها ، ولكل حياة أدبها الذى تنفخ فيه من روحها" .

وقد اعتبر أصحاب العقلية القديمة هذا الرأى امتدادًا لإلحاد الشابى وكفره لأنه لا يحمل التقديس الكامل للأدب العربى القديم الذى هو - فى نظر أصحاب هذه العقلية - أدب له قداسة تشبه قداسة الدين .

و لم يكن الصراع والخصام فى حياة الشابى مقصوراً على الميدان الفكرى

وحده ، بل تعداه إلى الميدان العملى .

يقول الأستاذ أبو القاسم كرو : "بذل الشابى نشاطًا اجتماعيًا كبيرًا، فقد قاد حركة طلاب "الزيتونة" التى كانت تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم والإدارة فى الكلية وتزعم إضرابهم عن الدروس ، وترأس لجنتهم وسير أعمالهم بوطنية أعجب بها الجميع" .

هذه خطوط عامة للحياة العنيفة التى عاشها الشابى ، حيث دخل معركة مع المجتمع والحياة فى كل ميدان ، ولقى من الإنكار والمعارضة ما يلقاه دائمًا أصحاب الأفكار المتقدمة على العصر الذى يعيشون فيه .

ذلك كان بالأمس ، أما اليوم فقد أصبح الشابى فى تونس وفى الوطن العربى كله مظهرًا قويًا من مظاهر الثورة السياسية لتحرير الوطن ، والثورة الاجتماعية لتحرير المرأة من القيود ولتحرير الإحساس من الجمود ، والثورة العقلية التى أخرجت الثقافة العربية من الذوبان فى الماضى والاقتصار على عبادة الأدب القديم والثقافة القديمة دون الالتفات إلى الثقافات العصرية الجديدة ، وكذلك أصبح الشابى مظهرًا قويًا من مظاهر الثورة الفنية التى جعلت من الشعر وسيلة رفيعة للتعبير عن التجارب الإنسانية ، لا وسيلة محدودة للتعبير عن المدح والهجاء والأفكار الخالية من العمق والمعنى الإنسانى الكبير .

إن "ثورة الشابى" قد انتصرت فى كل الميادين بل لقد تجاوز الواقع الراهن فى المجتمعات العربية المتقدمة ما كان يدعو إليه الشابى من أفكار وآراء .

ولكن الشابى أصبح الآن رمزًا جميلاً من رموز التحرر والانطلاق فى الحياة العربية . لقد انتصر الشابى بعد وفاته وكان يعانى الهزيمة فى حياته .

ولو ألقينا نظرة عامة على شعر الشابى من الناحية الفنية لوجدناه شاعرًا

جميلاً رقيقًا إلى حد بعيد ، فالقاموس الشعرى الذى ينتقى منه الشابى ألفاظه يعتبر من أنقى القواميس الشعرية فى أدبنا العربى الحديث والقديم ، إن ألفاظه رقيقة شفافة كأنها بلور مضيء أو كأنها نجوم تحولت إلى كلمات ، قليلا ما نجد فى قصائده ألفاظًا خشنة ، أو ألفاظًا صعبة ، أو ألفاظًا خالية من الأناقة . أما موسيقاه الشعرية فهى أيضًا موسيقى نقية ، سهلة ولكنها عميقة ، متلائمة دائمًا مع الأحوال النفسية التى يعبر عنها ... متلائمة مع أرفع مستوى لهذه الأحوال النفسية . والسحر الذى يجذبنا إلى عالم الشابى الفنى يعتمد كثيرًا على هذه الموسيقى العذبة التى نحس بها فى شعره فكأننا نسمع جوقة من العصافير الرقيقة تغنى فى روض ساحر من رياض الطبيعة التى طالما أحبها الشابى ، وأقام صلوات قلبه فى معبدها الكبير . إن "الإحساس الموسيقى" عند الشابى هو بلا شك من أعظم مواهبه ، بل من أعظم "الأحاسيس الموسيقية" التى عرفها أدبنا العربى كله .

وهذه الخصائص الفنية قد شبعت دراسة من النقاد ، ويكفى أن نقرأ بعض القصائد المعروفة للشابى حتى ندرك على الفور سحر ألفاظه ونقاءها ، وعذوبة موسيقاه ، وكثرة لوحاته الفنية عن الطبيعة والإنسان .

على أن السؤال الذى ينبغى أن نجيب عليه قبل أن نطوى صفحات هذا الكتاب هو : ما موقف الذوق العربى المعاصر من شعر الشابى ؟ ... إننا نطرح هذا السؤال بعد وفاة الشابى بسبعين سنة .

ليس من الإنكار لقيمة الشابى ولا من التجنى عليه أن نقول إن الذوق العصرى قد أصبح الآن أكثر خبرة بالحياة ، وأعمق تجربة فيها ، مما كان عليه الشابى ، كما أن التجارب الإنسانية العنيفة التى مر بها الوطن العربى ومر بها الإنسان العربى منذ وفاة الشابى "سنة ١٩٣٤ " ، إلى اليوم كانت من القوة والعنف بحيث جعلت معنى الخير والشر أعمق وأكثر تركيبًا من الصورة التى

رآها الشابي وأحسها ، إن الإنسان العربى المعاصر إنسان قد عصرته التجارب ، وذاق من ألوان المأساة صوراً لم تخطر ببال الشابى فى سنه المبكرة وعالمه الغض البسيط ، ومن هنا أصبح الذوق العربى الآن ينظر إلى الشابى كما ينظر الإنسان إلى صباه النقى الطاهر الذى لم يتلوث بالتجارب الكثيرة المعقدة ، و لم تتجاذبه عوامل متناقضة متصارعة .

كان الشابى مثاليًا فى كل شىء : فالمرأة عنده خير كامل وطهارة كاملة ، ونور شفاف يهبط على حياة الإنسان فيحمل إليه كل معانى السعادة الروحية العميقة ، والطبيعة أيضًا عالم مثالى نقى ، تمت صياغته بصورة خلصته من النواقص والشوائب ، وحتى الشر أيضًا عند الشابى هو شر مثالى مطلق متطرف .

لم يعرف الشابى أبدًا الأعماق التى عرفها (المزاج الواقعى والذى ينظر نظرة إنسانية إلى الحياة لا نظره "ملائكية" مبنية على الخيال ، فالنظرة القديمة إلى المرأة على أنها كائن حسى تابع للرجل نظرة خاطئة ، ولكن النظرة المقابلة أيضًا والتى تعتبر المرأة كائنًا أعلى من الكائن الإنسانى ، كائنًا شفافًا يوزع السحر ويشع منه النور ، هذه النظرة أيضًا ليست صحيحة بصورة مطلقة، فالمرأة كائن إنسانى ، وعضو فى المجتمع تستحق كل ما للرجل من حقوق ، وينطبق عليها ما ينطبق على الرجل من مقاييس الخير والشر .

إن المشكلة عند الشابى هى مشكلة "التعميمات" و "المواقف المتطرفة" مما لا تستريح إليه النفس الإنسانية التى تعمقت فى تجارب الواقع ، فأية نظرة تدعو إلى أن المرأة هى خير كلى كامل وأنها كذلك بلا استثناء فى جميع المواقف والأحوال ؟! مثل هذه الفكرة العامة المطلقة إنما هى فكرة تفوح منها رائحة الطفولة الشعورية ، وبساطة الإحساس ... إنها فكرة لم تصل إلى درجات أبعد من العمق الذى يدرك "حالة الصراع" بين الكمال والنقص ، بين الخير

والشر فى واقع الإنسان : رجلاً كان أو امرأة .

ومثل هذه النظرة تنطبق على بقية الأفكار الرئيسية التى عبر عنها الشابى ، حيث يشترك فى هذا النوع من التعبير مع جميع الشعراء الرومانسيين الأصلاء فى العالم .

ولنأخذ مثالاً صغيرًا يمكن أن نقيس عليه . يقول الشابى فى قصيدته "أيتها الحالمة بين العواصف" :

أنت لم تخلقى ليقربك الناس ولكن لتعبدى من بعيد ..

وهذه الفكرة الجميلة المثالية عن المرأة هى الفكرة التى يعيش بها الشابى على الدوام ، وهذه الفكرة بالطبع هى نوع من نبل الخيال ، وروعة الخيال ، وليس فيها نبل الواقع ، ولا روعة الواقع ... ذلك الواقع الذى لفح الإنسان العربى الجديد بتجاربه العديدة ، فأصبح ينظر إلى هذا النوع من الأحاسيس على أنه نوع من أحاسيس "الصبا" ومشاعره الأولى .

ذلك هو السر فى أن الذوق المعاصر قد تجاوز المشاعر والتجارب التى كان الشابى يعبر عنها ، وإن لم يكن تعبير الشابى عنها قد انتهى فما زال له بريقه وما زالت له روعته ، ففيه من الصدق والشوق إلى الحياة وأصالة الموهبة الفنية ما يضمن له البقاء والخلود ، وما يجعل منه شاعرًا نادرًا لا يتكرر كثيرًا... كل ذلك رغم "عدم النضج" بالنسبة إلينا فى تناوله لموضوعاته والنظر إليها نظرة مثالية عامة غير واقعية لا تدرك التفاصيل الدقيقة والجزئيات المختلفة، وهى الشيء الذى لم يكن بالإمكان الوصول إليه فى عصر الشابى .

بالـحُـبّ

كان الشابى فنانًا موهوبًا ، وإنسانًا صادقًـــا ، ظــهر فى مرحلة تحتاج إلى الثورة والتغيير الشامل فى ميدان الفكـــر والمجتمع والشعور ، فتبنى هذه الثورة وتبـــنى الدعــوة إلى التغيير العميق ، ولقى بسبب ذلك آلامًا كثـــيرة ، زادت من آلامه الطبيعية التى كان يعانيها بسبب مرضـــه الخطــير الذى قضى عليه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

يقول شوبنهور : "أمام تجربة الألم فى الحياة لا يوجـــد ســوى طريقــين للتخلص منها : إما الزهد والاندماج فى حالة من التصوف العميق ، وإما الفن : أن تغرق أحزانك فى الفن" هذا ما يقوله شوبنهور، فطريق الخلاص هــو أن تتصوف أو أن ترتفع بهذه الأحزان عن طريق الفن الذى يساعد الإنســـان إلى الوصول للقوة المعنوية الكاملة ، والإحساس الشفاف الذى لا يتأثر بمصـــائب الدنيا ، وإنما ينظر إليها من أعلى ، كأنه متصوف هندى يدرب نفسه علــــى العذاب فى تجارب اختيارية مستمرة .

وقد وقع الشابى فى "تجربة الألم" حتى قرارها البعيد ، واختار الطريق الثـــانى ، اختار الفن الذى عصر فيه قلبه الغض ، وكان مأواه الروحى الدائم كلمـــا صارعه الألم هو أن يكتب شعرًا ، أو يكتب أغنيات حب لشعره ، والشـــابى من أكثر الشعراء العرب المعاصرين تمجيدًا للشعر ، ففى ديوانه ثمانى قصائد عن الشعر هى : (شعرى – يا شعر – أغنية الشاعر – قلت للشعر أحلام شـــاعر

- فكرة الفنان - ألحانى السكرى - قلب شاعر) .

وفى هذه القصيدة كلها يعبر عن ارتباطه بالشعر ، فهو قوة عميقة ترفعه إلى ما هو أعلى من الألم ، وتشعل لهب الحياة فى قلب تحاصره الهموم ... أى أنه لم يلجأ للعزلة والتصوف وإنما لجأ بإيمان وحب إلى الفن .

وفى شهر سبتمبر ١٩٣٤ وصل المرض بهذا العابد للفن وللطبيعة والحب ، إلى حد خطير فذهب إلى تونس عاصمة بلاده ، وكان الثلج يوضع على صدره لتخفيف آلامه ، ولكن القلب الكبير سكت بينما كان الشابى يرقد فى المستشفى بحثًا عن أمل واه ضعيف فى الشفاء ... وفى التاسع أكتوبر سنة ١٩٣٤ مات الشابى فى هدوء ووداعة ، بعد أن احتمل من آلام المرض الكثير الكثير .

كان موتًا وديعًا برغم الألم ، وكل الذين شهدوه فى لحظاته الأخيرة أكبروا فيه قدرته على الاحتمال ، واستمراره فى الابتسام بقدر ما استطاع .

أخيرًا سكت ذلك الفنان الذى عاش على الحب ، وللحب ، فكان ثائرًا مجدداً ولكن بدون حقد أو كراهية ... لقد قدم الكثير برغم الشقاء الذى كان يحاصره ويضنيه ويدفعه إلى أن يقول :

والشقى الشقى من كان مثلى فى حساسيَّتى ورقةِ نفسى

ولكن حياته وكفاحه قد سجلا انتصاراً للحب الذى كان يملأ قلبه ويدفعه إلى العمل المستمر من أجل كرامة الشعب وكرامة المرأة وكرامة الفن ... لقد حقق بذلك ما قاله زميله فى الاستشهاد من أجل المعانى الإنسانية النبيلة "انطون تشيكوف" :

"إن كان فى وسعك أن تحب ، ففى وسعك أن تفعل أى شيء" .

ولقد أحب الشابى حبًا عميقًا راقيًا ... لقد أحب شعبه وبلاده وأحب الطبيعة والحياة والفن .

ولذلك فقد استطاع أن يفعل الكثير الذى كان بحاجة إلى أضعاف عمره القصير لكى يتم ويكتمل .

ولكنها قوة الحب ، فى فنان كان "عاشقًا" حتى فى أقصى لحظات تمرده وثورته ... فنان لم يعرف طعم الحقد ولم يشعر بمرارة العواطف السوداء . بل كان دائمًا يحلم بمجتمع مثالى ضائع لم يتحقق فى الواقع ، كان يحلم بالفردوس المفقود" وهذا "الفردوس" هو الجمال والقوة والخير والحب ولقد ظل طيلة حياته يبحث عن هذا الفردوس ويغنى له ، ويهرب على جناح الخيال إليه فيلقاه تارة فى مشاعر الطفولة النقية البريئة ، ويلقاه تارة أخرى فى تناسق الطبيعة واكتمال عناصر الحياة فيها ، وبقدر ما كان يحب "فردوسه" فقد كان يشعر بالحزن الدائم لأنه لا يجد لهذا الفردوس أثرًا فى حياة الواقع ، ولذلك ظهرت نغمة الأسى فى شعره ، تلك النغمة التى كانت نتيجة طبيعية لفقدان الفردوس" الذى كان يتمناه الشابى ويتخيله . ففى هذا "الفردوس" كان الشابى يتمنى أن يجد الإنسان الحى بكل ما فى كلمة الحياة من معنى ... حياة "الفعل" وحياة "الفكر" و "الشعور" ... وكان يتمنى فى "فردوسه" أن يجد الحب والصداقة والشعور بالمسئولية والطموح إلى المستقبل كعناصر أساسية تقوم عليها الحياة .

ولكنه لم يجد شيئًا من فردوسه ، ومات دون أن يرى بعينه شيئًا من هذا "الفردوس المفقود" فى واقع الحياة ، ومع ذلك فهو لم ينس يومًا فى سخطه ورضاه ، أن "الفردوس" سوف يتحقق فى النهاية على الأرض وفى واقع المجتمع... ولو كان ثمن ذلك هو أحزانه العميقة وأحزان أمثاله من المكافحين النبلاء من أجل فردوس إنسانى كامل .

مختارات من
شعر الشابى



يا شِعْرُ

يــا شــعرُ أَنْــتَ فــمُ الشــعور ، وصرخــةُ الــرُّوح الكئيــــبْ
يا شعر أنــت صــدى نحيــب القلــب ، والصّــب الغـــــريب

* * *

يــا شـــعر أنـــت مدامـــعٌ عَلِقـــتْ بـــأهداب الحيـــاة
يــا شعــر أنت دمٌ ، تفجّــر مـــن كلـــوم الكـــائنات

* * *

يــا شــعر ! قلــبى ــ مثلمــا تــــدرى ــ شـــقيٌّ ، مظلـــمُ
فيـــه الجـــراحُ ، الـــنجْـــلُ ، يقـــطر مـــن مغاورهـــا الـــدمُ

* * *

جمـــدت علـــى شـــــفتيه أرزاءُ الحيـــاة العابســـــة
فهو التعيــسُ ، يُـــذيـــه نَـــوحُ القلـــوب البائســـــةْ

* * *

أبـــدًا ينـــوح بحرقـــةٍ ، بـــين الأمـــانى الهاويـــــةْ

كـــــالبلبل الغرِّيـــــد مــــا بـــــين الزهــــــور الذاويــــــة

* * *

كـــمْ قـــد نصحـــتُ لـــه بــــأن يســــلو ، وكــــمْ عزَّيتُـــهُ
فـــأبى ، ومـــا أصغـــى إلى قـــــولى ، فمـــــا أجديتـــــهُ

* * *

كم قلـــــتُ : " صـــبرًا يـــا فـــؤادُ ! ألا تَكُـــفُّ عـــن النحيـــبْ ؟"
" فـــإذا تجلّـــدت الحيــــــاةُ تبـــــدّدتْ شُعَــــــلُ اللهيـــــب"

* * *

" يـــا قلـــب ! لا تجـــزع أمـــامَ تصلُّـــــبِ الدهـــــر المصــــورْ "
" فـــإذا صرخـــتَ توجُّعــــــا هزئـــــت بصرختـــكَ الدهـــور "

* * *

" يـــا قلـــب ! لا تســـخط علـــى الأيـــام ، فـــــالزهر البديــــعْ "
" يصغى لضجّـــات العواصـــف قبـــــل أنغــــــام الربيــــــع "

* * *

" يـــا قلـــب ! لا تقنـــعْ بشـــوك اليـــأس مـــن بـــين الزهــــــورْ "
" فـــوراءَ أوجـــاع الحيــــــاة عذوبــــةُ الأمــــل الجســــور"

* * *

" يـــا قلـــبُ ! لا تســـكبْ دموعَـــــكَ بالفضــــاء فتنـــــدمِ "

" فعلى ابتسامات الفضاء قساوةُ المتهكِّمِ "

* * *

لكنّ قلبى وهو - مُخضلٌّ الجوانب بالدموعْ -
جاشتْ به الأحزانُ ، إذ طفحت بها تلك الصدوع

* * *

يبكى على الحلم البعيد بلوعةٍ ، لا تنجلى
غردًا ، كصَدَّاح الهواتف فى الفلا ، ويقول لى

* * *

"طهِّرْ كلومكَ بالدموع ، وخلِّها ، وسبيلَها"
"إن المدامع لا تضيع حقيرها وجليلها"

* * *

" فَمِنَ المدامع ما تدفّعَ جارفًا حَسَك الحياهْ "
" يرْمى لهاوية الوجود بكل ما يبنى الطغاهْ"

* * *

"ومن المدامعِ ما تألق فى الغياهبِ كالنجوم "
" ومن المدامعِ ما أراح النفسَ من عبءِ الهموم "

* * *

فارحَمْ تعاسته ، ونُحْ معه على أحلامِهِ

فلقــــد قضـــى الحلـــمُ البديـــعُ علـــــى لظــــى آلامِــــهِ

* * *

يــا شــعرُ ! يــا وحْــيَ الوجــود الحــيِّ ، يــا لُغَــةَ الملائـــــكْ
غــرِّدْ ، فأيّامِــى أنــا تبْكـــى علـــى إيقــــاع نايـــــكْ

* * *

ردِّدْ علــــى سمــع الدجــى أنــاتِ قلـــبى الواهيــــةْ
واسكب بأجــفــان الــزهــور دمـــوعَ قــلــبى الــدامــيــة

* * *

فلعـــلّ قلـــب الليـــل أرحـــم بـــــالقلوب الباكيـــة
ولعـــلّ جفـــن الزهـــور أحفـــظ للدمـــوع الجاريـــة

* * *

كـــم حرَّكــت كــفُّ الأســـى أوتـــارَ ذيــّـاك الحنـــينْ
فتهاملــتْ أحـــزانُ قلـــبى فى أغاريـــد الأنـــين

* * *

فَلَكَـــمْ أَرَقْـــتُ مدامعـــى ، حـــتى تقرّحـــتِ الجفـــونْ
ثمَّ التفتُّ ، فلـــم أجـــد قلبًـــا يقاسمـــنى الشجـــون

* * *

فعســى يكــون الليـــل أرحـــم ، فـــهو مثلـــى ينــدبُ

وعسى يصون الزهـــر دمعـــى ، فهـــــــو مثـــــلى يسكـــــــبُ

* * *

قـــد قنَّعـــتْ كـــفٌّ المســـــاء المـــوتَ بـــالصَّمت الرهيـــــب
فغـــدا كأعمـــــاق الكهـــــوف ، بـــــلا ضجيـــــج أو وجيـــــب

* * *

يـــــأتى بأجنحـــــة الســـــكون ، كأنـــــه الليـــــل البـــــهيم
لكـــــن طيـــفَ المـــوت قاسٍ ، والدجـــى طيـــــــفٌ رحيـــــم

* * *

مـــــا للمنيـــــة لا تـــــرقُّ علـــــى الحيـــــاة النائحـــــة ؟
سيَّـــــان أفئـــــدة تئـــــن ، أو القلـــــوب الصادحـــــــة

* * *

يـــا شِـــعرُ ! هـــل خُلِـــقَ المَنـــونُ بـــلا شـــــعورٍ كالجمـــــاد ؟
لا رعشـــــة تعـــــرو يديـــــــه إذا تملَّقـــــه الفـــــؤاد

* * *

أرأيـــــتَ أزهـــــارَ الربيـــــــع ، وقـــــــد ذوتْ أوراقُـــــها
فَهَوَتْ إلى صـــدر التـــراب ، وقـــــد قضـــــت أشواقُهـــــا ؟

* * *

أرأيـــــت شـــــحرور الفـــــلا ، مترنمًـــــا بـــــين الغصـــــون

جمد النشيدُ بصدره ، لما رأى طيفَ المنون

* * *

فقضى ، وقد غاضت أغاريدُ الحياة الطاهرة

وهوى من الأغصان ، ما بين الزهور الباسرة ؟

* * *

أرأيتَ أم الطفل تبكي ذلك الطفلَ الوحيد

لّما تناوله بعنفٍ ، ساعدُ الموت الشديد ؟

* * *

أسمعتَ نَوْحَ العاشق الولهانِ ، ما بين القبور

يبكي حبيبته ؟ فيالمصَارع الموت الجسور

* * *

طفحتْ بأعماق الوجود سكينةُ الصبر الجليد

لما رأى عدل الحياة يضمه اللحدُ الكنود

* * *

فَتَدَفَّقَتْ لحنًا ، يردده على سمع الدهور

صوتُ الحياة بضجة .. ، تسعى على شفة البحور

* * *

يا شعرُ ! أنتَ نشيدُ أمواج الخضم الساحرة

الناصعــــات ، الباسمـــــــات ، الراقصـــــات ، الطاهــــــرة

* * *

الســـــافرات ، الصادحـــــات مــــع الحيـــــاة إلى الأبـــــــد ؟
كعرائــس الأمـــــل الضحـــوكِ ، يَمِسْــنَ مـــــا طـــــال الأمــد

* * *

هـــــــا إن أزهــــــارَ الربيــــــع تبســــــمتْ أكمامُــــــها
ترنـــــــو إلى الشَّفـــــــق البعيـــــــدِ ، تغُرُّهـــــا أحلامهــــا

* * *

فى صدرهـــــا أمـــــلٌ ، يحـــدِّق نحـــو هـــــاتيك النجــــــوم
لكنـــــــه أمـــــلٌ ، ستلحـــــده جبابـــــــرةُ الوجــــــــوم

* * *

فلســـوف تغمــض جفنــها ، عـــــن كــــل أضــــواء الحيـــــاة
حيـــث الظـــــلام مُخَيِّـــــمٌ فى جـــــو ذيَّـــــاك الســبـــــــات

* * *

هـــــا إنها همســـــت بـــــــآذانِ الحيـــــاة غريدَهـــــــا
قتلـــــتْ عصافـــيرُ الصبـــــاح ، صُدَاحَـــــــها ونشــــيدَها

* * *

يـــا شـــعرُ ! أنـــــت نشـــيد هـــــاتيك الزهـــــور الباسمـــــة

يا ليتنى مثـــل الزهــــــــور ، بــــــلا حيــــــاة واجمــــــــة

* * *

إن الحيـــــــاة كئيبـــــــة ، مغمـــــــــــورة بدموعـــــــــها !!

والشمـــس أضجرهـــا الأســـــى ، فى صحوهـــا وهجـــوعـــــها

* * *

فتجرعـــت كأسًــــــا دهاقًـــــا ، مـــــن مُشعشـــــعة الشَّـــفَق

فتمايلـــتْ ، سَكـــرى إلى كهـــــف الحيـــــاة .. ولم تُفِـــــق

* * *

يـــــا شــــعرُ ! أنـــــتَ نحيبـــــها لمـــــا هـــوَتْ لشُــــــباهَا

يـــــا شعـــرُ أنـــتَ صُداحهَـــــــا ، فى موهَـــــا وحياهَـــــــا

* * *

انظـــر إلى شـــفق الســـماء ، يفيـــض عــــــن تلـــــك الجبــــــال

بشعاعـــه الخـــــلاب ، يغمرهــــــا ببسمــــــاتِ الجمــــــال

* * *

فيثــــير فى النفــــس الكئيبــــــة عاصفًـــــا لا يركـــــــدُ

ويؤجِّـــج القلــــب المعـــــــذَّبَ شعلــــــةً لا تخمــــــدُ

* * *

يـــا شـــعرُ ! أنـــت جمــــــال أضـــواء الغـــروب الســـاحرة

يا همسَ أمواجِ المساء ، الباسماتِ الحائرة

* * *

يا نایَ أحلامی الحبيبةِ ! يا رفيقَ صَبابتی
لولاكَ متُّ بلوعتی ، وبشقوتی ، وكآبتی

* * *

فيكَ انطوتْ نفسی ، وفيكَ نفختُ كلَّ مشاعری
فاصدحْ علی قمم الحياة بلوعتی ، يا طائری



النبيُّ المجهول

أيها الشعب ! ليتنى كنتُ حطَّابًـــا ... فأُهْوى على الجـــذوع بفأســـى !
ليتنى كنتُ كالسيول، إذا ســالت ... تهدُّ القبــــورَ : رمسًـــا برمـــسِ !
ليتنى كنت كالريـــاح ، فـــأطوى ... كل ما يخنـــق الزهـــور بنحســـى!
ليتنى كنت كالشـــتاء ، أُغشِّـــى ... كلَّ ما أذبلَ الخريـــفُ بقرســـى !
ليت لى قوَّةَ العواصف ، يا شـــعبى ... فـــأُلقى إليـــك ثـــوْرَةَ نفســـى !
ليت لى قوة الأعاصير ، إن ضجّتْ ... فـــأدعوك للحيـــاة بنبســـى !
ليت لى قوة الأعاصير... ! لكـــن ... أنت حىٌّ ، يقضى الحياة برمسِ! ..
أنت رُوحٌ غَبِيّة ، تكره النُّـــور ، ... وتقضى الدهورَ فى ليْـــل مَلْـسِ
أنت لا تدرك الحقائق إن طـــافتْ ... حواليك دون مـــسٍ وجـــسٍّ ...
فى صباح الحياة ضَمَّخْتُ أكـــوابى ... وأترعتُـــها بخمْـــرةِ نفســـى ...
ثمّ قدَّمتُـــها إليـــكَ ، فـــأهرقْتَ ... رحيقى ، ودُسْتَ يا شعبُ كأسى !
فتألّمْتُ .. ، ثُم أسكتُّ آلامـــى ، ... وكفكفتُ من شـــعورى وحسـى
ثم نضّدتُ مـــن أزاهـــير قلـــبى ... باقـــةً لمْ يَمَسَّـــها أيُّ إنْسِـــى ...
ثم قدَّمتُـــها إليـــك ، فمزَّقْـــتَ ... ورودى ، ودُســـــتَها أيَّ دوس

ثم ألبستَنى من الحزن ثوبًا — وبشوك الجبال توَّجتَ رأسى

* * *

إننى ذاهبٌ إلى الغاب ، يا شعبى — لأقضى الحياةَ ، وحدى ، بيأسِ

إننى ذاهب إلى الغاب ، علّى — فى صميم الغابات أدفن بؤسى

ثم أنساكَ ما استطعتُ ، فما أنتَ — بأهلٍ لخمرتى ولكأسى

سوف أتلو على الطيور أناشيدى ، — وأفْضى لها بأشواق نفسى

فهى تدرى معنى الحياة ، وتدرى — أنّ مَجْدَ النفوس يقظةُ حسٍّ

ثمّ أقضى هناك ، فى ظلمة الليل ، — وألْقى إلى الوجود بيأسى

ثمَ تحت الصنَوْبرِ الناضر ، الحلو ، — تخُطُّ السيول حفرةَ رمسى

وتظَلُّ الفصولُ تمشى حواليَّ ، — كما كُنَّ فى غضارة أمسى

* * *

أيها الشعب ؟ أنتَ طفل صغير ، — لاعبٌ بالتراب والليلُ مُغْس .!

أنتَ فى الكون قوَّة ، لم تَسُسْها — فكرة ، عبقريَّةٌ ، ذات بأسِ

أنت فى الكون قوةٌ ، كبَّلتْها — ظلماتُ العصور ، من أمسِ أمسِ ..

والشقيُّ الشقيُّ من كان مثلى — فى حساسيَّتى ، ورِقَّةِ نفسى

* * *

هكذا قال شاعرٌ ، ناولَ الناسَ — رحيقَ الحياة فى خير كأسِ

فأشاحوا عنها ، ومرُّوا غضابا — واستخفُّوا به ، وقالوا بيأسِ :

"قد أضاع الرشاد فى ملعب الجـن ... فيــا بؤســه ، أصيــب بمــسّ"
"طالما خاطبَ العواطفَ فى الليــل ... وناجى الأموات فى غــير رمــسِ"
"طالما رافقَ الظــلامَ إلى الغــاب ... ونادى الأرواحَ من كل جنــسِ"
"طالما حدَّثَ الشياطين فى الــوادى ... وغنَّــى مــع الريــاح بجَــرس"
"إنه ســاحرٌ ، تعلّمُــه السّــحرَ ... الشياطينُ ، كــلَّ مطلــع شمــسِ"
"فابعدوا الكافرَ الخبيثَ عن الهيكــل ... إنَّ الخبيــثَ منبــعُ رجــسِ"
"اطــردوه ، ولا تُصيخــوا إليــه ... فهو روحُ ، شرِّيرةٌ ، ذات نحــسِ"

* * *

هكذا قال شــاعرٌ ، فيلســوف ، ... عاش فى شــعبه الغبــيِّ بتعْــسِ
جَهِلَ الناس روحَــه ، وأغانيــها ... فســاموا شــعورَه ســوْمَ بخــسِ
فــهو فى مذهــب الحيــاة نــبيٌّ ... وهــو فى شــعبه مصــابٌ بمــسِ
هكذا قال ، ثمَّ سار إلى الغــاب ، ... ليحيــا حيــاةَ شــعر وقــدسِ
وبعيدًا ،، هناك .. ، فى معبد الغاب ... الــذى لا يظِلُّــه أى بــؤسِ
فى ظلال الصنوبر الحلو، والزيتــون ... يقضى الحيــاة : حرسًــا بحــرس
فى الصباح الجميل ، يشدو مع الطــير ، ... ويمشــى فى نشــوة المتحسِّــى
نافخًا نايَــه ، حواليــه ، تهــتزُّ ... وورودُ الربيع مــن كــلِّ قنــسِ
شَعْرهُ مُرسَلٌ ــ تداعبــه الريــحُ ... علــى منكبيْــه مثــل الدمقــس
والطيورُ والطّرابُ تشدو حواليــه ... وتلغو فى الدوح ، من كل جنــسِ

وتراه عند الأصيل ، لدى الجدول ، يرنو الطائر المتحسِّى

أو يغنِّى بين الصنوبر ، أو يرنو إلى سُدْفَة الظلام الممسِّى

فإذا أقْبَل الظلامُ ، وأمستْ ظلماتُ الوجود فى الأرض تُغسى

كان فى كوخه الجميل ، مقيما يسأل الكون فى خشوع وهمسِ

عن مصبِّ الحياة ، أين مداه ؟ وصميم الوجود ، أيَّانَ يُرسى ؟

وأريجِ الورود فى كل وادٍ ونشيدِ الطيور ، حين تمسِّى

وهزيم الرياح ، فى كل فجٍّ ورسوم الحياةِ من أمسِ أمسِ

وأغانى الرعاةِ أين يواريها سكونُ الفضاء ، وأيَّان تمسى؟

* * *

هكذا يصرف الحياةَ ، ويُفنى حَلَقَاتِ السنين : حَرْسا بحرس

يا لها من معيشةٍ فى صميم الغاب تضحى بين الطيور وتمسى !

يا لها من معيشة ، لم تُدَنِّسْها نفوس الورى بخبث ورجسِ

يا لها من معيشةٍ ، هيَ فى الكون حياة غريبة ، ذات قُدسِ

الأشواقُ التائهة

يا صميـــمَ الحيـــاة ! إني وحيـــدٌ   مدْلجٌ ، تائه . فـــأين شـــروقُك ؟
يا صميـــــم الحيـــاة ! إني فـــوادٌ   ضائعٌ ، ظامئٌ . فـــأين رحيقُـــك
يا صميم الحياة ! قد وجَمَ النْـــايُ   وغام الفضـــا ، فـــأين بروقـــك ؟
يا صميم الحياة ! أين أغـــانيك !   فتحتَ النجوم يُصغِـــى مَشـــوقك

* * *

كنتُ فى فجرك ، الموشَّح بالأحلام ، عِطْرًا ، يُرفُّ فوق ورودِك
حالمًا ، ينهل الضياءَ ، ويُصغى   لك ، فى نشوةٍ بوحى نشيدك
ثُمَّ جـــاء الـــدجـــى .. ، فأمسيتُ أوراقًا ، بدادًا ، من ذابلات الورود
وضبابًا من الشذى ، يتلاشـــى   بين هول الدجى وصَمت الوجود
كنتُ فى فجركَ المغلَّف بالسحر   فـــضـــاءً مـــن النشـــيد الهادى
وسحابًا من الرؤى ، يتهـــادى   فى ضمـــــير الآزال والآبـــاد
وضياءً ، يعانق العالَمَ الرحـــب   ويســـرى فى كل خـــاف وباد .
وانقضـــى الفـــجـــرُ .. ، فانـــحدرت من الأفق ترابًا إلى صميم الوادى

* * *

يا صميم الحياة ! كم أنــــا فى الدنيــا غريـــبٌ ! أشـــقى بغربـــة نفســـى
بـــين قـــوم ، لا يفـــهمون أناشـــيدَ فـــؤادى ، ولا معـــــانى بؤســـــى
فى وجـــودٍ مكبَّـــلٍ بقيـــودٍ ، تائـــــهٍ فى ظـــــلام شـــــكٍ ونحـــس
فاحتضِنِّى ، وضُمَّنى لك ــ كالمـــــاضى ــ فـــهذا الوجـــودُ علَّـــةُ يأســـى

* * *

لم أجـــد فى الوجـــود إلا شـــقاءً ، ســـرمديًّا ، ولَـــــذّةً ، مضمحلَّـــــةْ
وأمـــانيَّ ، يُغـــرق الدمـــعُ أحلاهـــا ، ويفـــنى يمُّ الزمـــــان صداهـــــا
وأناشـــيدَ ، يـــأكل اللـــهيبُ الدَّامِـــى مســـرَّاتِها ، ويُبْقِـــــى أســـــاها
وورودًا ، تمـــوت فى قبضـــة الأشـــواك . مـــا هـــذه الحيـــاة المُمِلَّـــــةْ ؟!
ســـأمُ هـــذه الحيـــاة مُعَـــادٌ وصبـــاحٌ ، يكـــر فى إثـــر ليـــلٍ
ليتـــنى لم أفِـــدْ إلى هـــذه الدنيـــا ، ولم تســـبح الكواكـــبُ حـــولى !
ليتـــنى لم يعـــانقِ الفجـــرُ أحلامـــى ، ولم يلثـــم الضيـــاءُ جفـــونى !
ليتنى لم أزل - كما كنت - ضوءًا ، شـــائعًا فى الوجـــود ، غـــير ســـجين !

أحلامُ شاعر

ليت لى أن أعيش فى هـــذه الـــدنيا
سـعـــيدًا بوحـــدتى وانفـــرادى
أصرف العمر فى الجبال ، وفى الغابات،
بـــين الصـــنوبر الـمـــيَّادِ
ليس لى من شواغل العيش ما يصـــرف
نفـــسى عـــن اســتماع فؤادى
أرقبُ الموت ، والحياةَ ، وأصـــغِى
لـحـــديــث الآزال والآبـــاد
وأغـــنّـِى مـــع الـــبلابل فى الغاب ،
وأصــغِى إلى خـــرير الـــوادى
وأناجى النجومَ والفجرَ ، والأطـــيارَ
والنهـــرَ ، والضـــياءَ الـــهادى
عِيشةً للجمال ، والفـــنِ ، أبغـــيها
بعـــيدًا عـــن أمَّـــتى وبلادى

لا أُعنّي نفــسى بأحــــزان شــعبى

فهو حيٌّ ، يعيش عيْشا الجمادِ !

وبحـــسبى من الأسى مــا بنفـــسى

مــن طريفٍ مُسْتحْدَثٍ ، وتِلادِ

وبعيدًا عن الــمــدينة ، والــنــاس ،

بعــــيدًا عن لغو تلك النوادى

فهو من معدن الســـخافة والإفــكِ

ومــــن ذلك الهراء العــادى

أيْنَ هُــوْ من خــريرِ ســاقية الوادى

وخفْقِ الصدى ، وشدو شادى

وحفيفِ الغصون ، نمَّقها الطـــــلُّ

وهمـس النســيم للأوْرادِ

هذه عِيشةٌ تقــدِّسها نفــــــسى

وأدعـــــو لمجــدها ، وأنادى

قيودُ الأحلام

وأوَدُّ أنْ أحيـــا بفكـــرة شـــاعر
فأرى الوجودَ يضيق عـــن أحلامـــى
إلاّ إذا قطّعـــتُ أســبابى مـــع الدنيـــا
وعشـــتُ لوحدتـــــى وظلامـــــى
فى الغاب ، فى الجبل البعيـــد عـــن الـــورى
حيث الطبيعة ، والجمـــال الســـامى
وأعيـــشُ عِيشَـــةَ زاهـــدٍ مُتَنَسِّـــكٍ
مـــا إنْ تدنِّســـهُ الحيـــاة بـــذامِ
هَجَـــرَ الجماعـــةَ للجبـــال ، تورُّعًـــا
عنها وعـــن بطـــش الحيـــاة الدامـــى
تمشـــى حواليـــه الحيـــاة كأنهـــا
الحلـــمُ الجميـــل ، خفيفـــةَ الأقـــدامِ
وتخِـــرُّ أمـــواج الزمـــان بهيبـــةٍ
قدســـيَّةٍ ، فى يمِّـــها المـــترامى
فـــأعيش فى غـــابى حيـــاةً ، كلّـــها
للفـــنِّ ، للأحـــلامِ ، للإلهـــام
لكنـــنى لا أســـتطيع ، فـــإنَّ لى
أُمًّـــا ، يصـــدُّ حنائـــها أوهـــامى
وصِغـــارَ إخـــوانٍ ، يـــرون ســـلامهم
فى الكائنـــات معلقًـــا بســـلامى

فقدوا الأبَ الحانى ، فكنــــتُ لضعفـــهم
كـــهْفا يَصُـــــــدُّ غوائـــلَ الأيـــامِ
ويقيـــهُمُ وَهَـــجَ الحيـــاة ، ولفحَـــها
ويـــذود عنِـــهم شِـــــرَّة الآلام
فأنـــا المكبَّـــلُ فى سلاســـلَ ، حيَّـــةٍ ،
ضحَّيْـــتُ مـــن رأفى بهـــا أحلامـــــى
وأنا الذى ســـــكنَ المدينـــة ، مُكرهـــا
ومشـــى إلى الآتـــى بقلـــبٍ دام
يصغى إلى الدنيـــا الســـخيفةِ راغمًـــا
ويعيـــش مثـــل النـــاس بالأوهـــام
وأنـــا الـــذى يحيـــا بـــأرضٍ ، قفـــرةٍ
مدحـــــوَّةٍ للشـــــكِّ والآلام ...
هجمـــت بىَ الدنيـــا علـــى أهوالهـــا
وخِضمِّـــها الرحـــب ، العميـــق الطـــامى
مـــن غـــير إنـــذار فـــأحمل عُدتـــى
وأخوضـــه كالســـــابحِ العـــوَّام
فتحطمـــتْ نفســـى علـــى شـــطآنه
وتـــأجَّجتْ فى جـــوِّه آلامـــى

* * *

الويل فى الدنيـــا الـــتى فى شـــرعِها
فأسُ الطعام كريشـــةِ الرَّسَّـــامِ ؟

أنا أبكيكَ للحُبّ

لســـــتُ يـــا أمســـــىَ أبكيـــك لمجـــــدٍ أو لجـــــاه
ســـــلبته منـــــــــــّى الدُّنيـــــا ، وبزَّتْـــــــــنى رداهْ
فأنـــــا أحتقـــــرُ المـــــجدَ وأوهــــــام الحيـــــاهْ

* * *

أو لعُمْــــرٍ ، بلغـــــــتْ منـــــه الليــــالى منتـــــهاهْ
وتلاشـــــتْ فى خضـــم الزَّمَـــنِ الطـــــاغى قـــواهْ
فأنـــا مازلــت فى فجـــــر شبـــــابى أو ضُحــــــاه

* * *

لا ، ولا أبكيـــكَ يـــا أمســـــــى ، إذا مـــا قلــــت " آه "
لنعيـــــــم ، لم يَنـــــلْ قلـــــبيَ منــــــه مشْــــــتهاه
فبنـــــو الأيـــــام فى الدنيـــــا كمـــا شـــــاء الإلـــــه

* * *

إنمـــــا أبكيـــــكَ للحُـــــبِّ ، الـــــذى كـــــان بهــــــاه

يملأ الدنيا فأنَّى سرتُ فى الدُّنيا أراه

فإذا ما لاحَ فجرٌ ، كان فى الفجر سناهْ

وإذا غرَّد طيرٌ ، كان فى الشَدوِ صداهْ

وإذا ما ضاع عِطرٌ ، كان فى العطرِ شذاهْ

وإذا ما رفَّ زهرٌ ، كان فى الزَّهرِ صِبَاهْ

فهو فى الكون جمالٌ ، يَملأُ الأفقَ ضِياهْ

وتُوشِّى هذه الأكوانَ بالسِّحر رؤاه

وهو فى قلبى ــ الذى عانقه الفجرُ ــ إلهْ !

عبقريُّ السِّحرِ ، ممراحٌ وديعٌ فى سماهْ

يَنسجُ الأحلامَ فى قلبى بأضواءِ الحياهْ

ويُغَنِّيني ، فأنسَى فى مسراتِ غِناهْ

كلَّ ما فى الكون من حزن وأفراحٍ ، عَداهْ

سِرُّ النهوض

لا ينـــهضُ الشـــعبُ إلاّ حـــين يدفعـــه
عزمُ الحياة ، إذا مـــا اســتيقظتْ فـــيه

والحَـــبُّ يخـــترقُ الغـــبراءَ ، مندفعًـــا
إلى الســـماء ، إذا هبَّـــتْ تناديـــهِ

والقيْـــدُ يألفـــه الأمـــواتُ ، مـــا لبثـــوا
أمّـــا الحيـــاةُ فيُبْليهـــا وتُبْليـــهِ

* * *

صلواتٌ فى هيكَل الحُبّ

عذبــةٌ أنــت كالطفولــةِ ، كــالأحلامِ
كــــاللحنِ ، كالصبـــاحِ الجديــــدِ
كالسماءِ الضحوكِ ، كالليلـــةِ القمْــراءِ
كـــــالوردِ ، كابتســـامِ الوليـــــدِ
يـــا لهـــا مــــن وداعـــةٍ وجمـــال
وشـــــــباب مُــنَعَّمٍ أمــلــودِ !
يا لها مــن طــهارةٍ ، تبعــث التقديـــ
سَ فى مهجــة الشـــقيِّ العنيـــد ....!
يـــا لهـــا رقـــةٌ تكـــادُ يَــرفُّ الــوَرْدُ
منـــها فى الصخـــرة الجلمـــــود !
أيُّ شيء تُراكِ ؟ هل أنـــتِ "فينيـــس"
تَــهادتْ بــين الــورى مــن جديـــدِ؟
لِتُعيــدَ الشــبابَ والفــرحَ المعســـولَ
للعـــالمِ التعيـــسِ العميـــدِ !

أم مــلاكُ الفــردوس جــاء إلى الأر

ض ليُحْــيى رُوحَ الســلام العهــيد !

أنتِ ... ، ما أنتِ ؟ رســمٌ جميــلٌ

عبقــريٌّ مــن فــنٍّ هــذا الوجــود

فيكَ ما فيــهِ مــن غمــوضٍ وعمــقٍ

وجمــالٍ مُقــدَّسٍ معبــود

أنتِ . ما أنتِ ؟ أنتِ فجرٌ من الســحرِ

تجلَّــى لقلــبىَ المعمــودِ

فــأراه الحيــاة فى مونِــق الحســن

وجلّــى لــه خفايــا الخلــودِ

أنــتِ روح الربيــع ، تختــال فى الدنيــا فتــهتز رائعــاتُ الــورودِ

وتــهبُّ الحياة سكرى مــن العِــطــر ، ويــدْوى الوجــود بالتغريــدِ

كلّمــا أبصرتــكِ عينــايَ تمشــينَ

بخطــوٍ موقَّــعٍ كالنشــيدِ

خفقَ القلــبُ للحيــاةِ ، ورفَّ الــزَّ

هــرُ فى حقــلِ عمــريَ المجــرودِ

وانتشــتْ روحــيَ الكئيبــةُ بــالحبِّ

وغنــتْ كــالبلبلِ الغرِّيــدِ

أنــت تُحيِـــينَ فى فــؤادى مــا قـــد
مـــات فى أمســــــيَ الســــعيدِ الفقيـــدِ
وتشـــيدين فى خرائـــب روحــــــــى
مـــا تلاشــــــــى فى عــــهديَ المجـــدودِ
من طمـــوحٍ إلى الجمـــالِ إلى الفـــنِّ ،
إلى ذلـــــك الفضــــــاء البعيـــــــدِ
وتُبُثِّين رقـــــة الشـــوق ، والأحـــلامِ
والشـــــدوِ ، والهــــوى ، فى نشـــــيدى
بعـــد أن عـــانقت كآبـــةُ أيـــامى
فـــــؤادى ، وألـــجـــمـــتْ تغـــريـــدى
أنـــت أنشـــودةُ الأناشـــيدِ غنَّـــاكِ
إلـــــهُ الغنـــــاءِ ، رَبُّ القصيـــــدِ
فيك شبَّ الشبابُ ، وشَّحهُ السّـــحرُ
وشـــدوُ الهـــــوى ، وعِطــــرُ الـــورودِ
وتـــراءى الجمـــالُ، يرقـــص رقصًـــا
قُدُســيًّا ، علـــــى أغـــانى الوجـــودِ
وتمـــادتْ فى أفـــقِ روحِـــكِ أوْزانُ
الأغــــــانى ، ورقـــــةُ التغريــــدِ

فتمــايلتِ فى الوجــــودِ ، كلحْـــنِ

عبقــريٍّ الخيــالِ حلـــــوِ النشـــيدِ:

خطـــوات ، ســـكرانة بالأناشـــــيدِ ،

وصــوت ، كرجْـــعِ نــــايٍ بعيــــدِ

وقـــوام ، يكـــاد ينطـــق بالألحـــــان

فى كـــــلّ وقفـــــةٍ وقعـــــــودِ

كـــلُّ شـــيءٍ موقَّـــعٌ فيـــكِ ، حتَّـــى

لَفْحـــةُ الجيـــــدِ ، واهـــتزازُ النـــــهودِ

أنتِ .. ، أنتِ الحياةُ فى قدْســـها الســـامى ، وفى ســـحرها الشـــجيِّ الفريـــد

أنتِ .. ، أنتِ الحياةُ ، فى رِقّةِ الفجــــرِ فى رونـــقِ الربيـــعِ الوليـــدِ

أنتِ .. ، أنـــتِ الحيـــاةُ ، كـــلَّ أوانٍ

فى رُواءٍ مـــن الشـــــبابِ ، جديـــدِ

أنتِ .. ، أنتِ الحياةُ فيك وفى عيـــــــ

نيْـــكِ آيـــاتُ ســــــحرها المَمْـــدُود

أنت دنيا مــــن الأناشـــيدِ والأحْـــلامِ

والســـحْرِ والخيــــالِ المديـــــدِ

أنتِ فوقَ الخيالِ ، والشِّعرِ ، والفـــنِّ

وفـــوْقَ النُّــــهَى وفـــوقَ الحـــدودِ

أنتِ قُدْسِي ، ومعبدى ، وصبـــــاحى

وربيعـــى ، ونَشْـــوَتِى ، وخلـــــودى

* * *

يا ابنةَ النور ، إنـــــى أنـــا وَحـــدى

مَـــن رأى فيـــك رَوعـــــــةَ المعبـــودِ

فدَعيـــنى أعيـــش فى ظلّـــكِ العـــذبِ

وفى قـــــربِ حُســــنكِ المشـــــــهودِ

عِيشةً للجمـــــالِ ، والفـــنِ ، والإلهـــامِ

والطُّـــــهرِ ، والسَــــنّىِ ، والســـــجودِ

عِيشةَ الناسكِ البتُـــولِ يُنـــاجى الـــرَّ

بَّ فـــى نشـــــــوةِ الذُّهـــولِ الشـــديدِ

وامنحيـــنى الســـلامَ والفـــرحَ الـــرو

حيَّ يا ضـــوءَ فجـــريَ الـــمـــنشـــودِ

وارحميني ، فقـــــدْ تهدَّمـــتُ فى كـــو

نٍ مـــــن الـيـــــأس والظـــلامِ مَشـــيدِ

أنقذيني من الأســـى ، فلقـــد أمسيـــــ

ـتُ لا أســـــتطيعُ حمـــــلَ وجـــــودى

فى شعابِ الزَّمــــان والمــوت أمشـــى

تـــحـــت عِــبـءِ الحياةِ جَـــــمَّ القيــودِ

وأماشى الـــــورَى ونفســـى كـــالقبور

وقلــــــبى كالعـــــــالم المـــــــهدود :

ظُلْمةٌ ، مـــــا لهـــا ختـــامٌ ، وهـــولٌ

شـــــائعٌ فى ســــــــكونها الممـــــــدودِ

وإذا مـــا اســـتخفنى عَبَــثُ النـــاس

تبسَّـــــمتُ فى أســــــــىً وجُمــــــودِ

بســـمةٌ مُـــرَّةٌ ، كـــــأنِّى أســـتلُّ

مـــن الشَّـــــوْك ذابـــلاتِ الـــورودِ

وانفخى فى مشـــاعرى مَــرَحَ الدنيـــا

وشُـــــدِّى مـــــن عزمـــيَ المجــــهودِ

وابعثى فى دمـــــى الحـــرارة ، عَلِّــى

أتغنَّـــى مـــــع المُـــــنى مِــــن جديـــدِ

وأُبـــثُّ الوجـــودَ أَنْغَـــــامَ قلــــب

بُلْبُلـــــــيّ ، مكبَّـــــلٍ بـــــــالحديد

فالصباحُ الجميــــلُ يُنعــشُ بـــالدِّفءِ

حيـــــاةَ المُحطَّـــمِ المكـــــــدودِ

أنقذيني ، فقـــد سـئمتُ ظلامـــى !
أنقذيـــى ، فقـــد مللـــــتُ ركـــودى !

* * *

آه يـــا زهرتـــى الجميلـــةَ لـــو تدريـــن
مـــا جَـــدَّ فى فـــؤادِى الوحيـــد
فى فـــؤادى الغريـــب تُخْلَـــقُ أكـــوانٌ
مـــن الســـحرِ ذاتُ حســـنٍ فريـــدِ
وشمـــوسٌ وضـــاءةٌ ونجـــومٌ
تنـــثرُ النـــورَ فى فضـــاءٍ مديـــدِ
وربيـــعٌ كأنـــه حُلُـــمُ الشـــاعرِ
فى سَـــكرةِ الشـــبابِ الســـعيدِ
ورياضٌ لا تعـــرف الحلـــكَ الداجـــى
ولا ثـــورةَ الخريـــفِ العتيـــدِ
وطيـــورٌ ســـحريةٌ تتنـــاغى
بأناشـــيدَ حلـــوةِ التغريـــدِ
وقصورٌ كأنهـــا الشـــفقُ المخضـــوبُ
أو طلعـــةُ الصبـــاحِ الوليـــدِ

وغيـومٌ رقيقـةٌ تتـهادى

كأباديدَ من نُثارِ الورود

وحيـاةٌ شـعريةٌ هـى عنـدى

صـورةٌ من حياةِ أهـلِ الخلـودِ

كـلُّ هـذا يشـيده سـحرُ عينيـكِ

وإلهـامُ حُسْـنكِ المعبـودِ

وحـرامٌ عليـك أن تهدمـى مـا

شـادهُ الحُسـنُ فى الفـؤاد العميـد

وحـرامٌ عليـكِ أن تسـحقى آمـ

ـالَ نفـسٍ تصبـو لعيـشٍ رغيـدِ

منـك ترجـو سـعادةً لم تجدهـا

فى حيـاةِ الـورى وسـحرِ الوجـودِ

فالإلـهُ العظيـمُ لاَ يَرْجُـمُ العَبْـدَ

إذا كـانَ فى جـلالِ السـجودِ

قلبُ الأمّ

يــا أيُّــها الطفــلُ الــذى قــد كـــان كـــاللحن الجميـــلْ
والـــوردةِ البيضـــاءِ ، تعبَـــق فى غيابـــات الأصيـــلْ
يــا أيُّــها الطفــلُ الــذى قــد كــان فى هـــذا الوجـــودْ ،
فَرِحًـــا ، ينـــاجى فتنـــة الدنيـــا بمعســـول النشـــيد
هــا أنــتَ ذا قــد أطبقـــتْ جفنَيْـــك أحـــلامُ المنـــونْ
وتطــايرتْ زمــرُ الملائـــكِ حـــولَ مضجعـــكَ الأمـــينْ
ومضــتْ بروحــكَ للســـماء عرائـــسُ النُّـــورِ الحبيـــب
يحمِلـــنَ تيجانًـــا ، مُذَهَّبَـــةً ، مـــن الزَّهـــرِ الغريـــبْ
هــا أنــت ذا قـــد جَلْلتـــكَ ســـكينة الأبـــدِ الكبـــيرْ
وبكتــك هـــاتيك القلـــوبُ ، وضمَّـــك القـــبرُ الصغـــيرْ
وتفـــرَّق النـــاسُ الذيـــن إلى المقـــابر شـــيَّعوكْ
ونسُـــوكَ مـــن دنيـــاهُمُ ، حـــتى كـــأنْ لم يعرفـــوك
شـــغلتهمُ عنـــك الحيـــاةُ ، وحـــربُ هـــذى الكائنـــات
إنّ الحيـــاةَ - وقـــد قضيْـــتَ قُبَيْـــلَ معرفـــةِ الحيـــاةْ -

بحـرٌ ، قراراتـــهُ الـــرَّدى ، ونشـــيدُ لُجَّتـــه ، شَـــكاةْ
وعلـــى شـــواطئه القلـــوبُ تئـــنُّ ، داميـــةً عُـــراهْ
بحـر ، تجيـــشُ بـــه العواصـــفُ فى العشـــيةِ والغـــداهْ
وتُظلّـــهُ سُـــحُبُ الظـــلام ، فـــلا ســـكونَ ولا إبـــاهْ
نَســـيتكَ أمـــواجُ البحـــيرةِ ، والنجـــــومُ اللامعـــــةْ
والبلبـــلُ الشـــادى ، وهـــاتيك المـــروجُ الشاســـعةْ
وجـــداولُ الـــوادى النضـــير برقصـــــها وخريرهـــــا
ومســـالكُ الجبـــل الصغـــير بعشـــبها وزُهورهـــــا
حـــتى الرفـــاقُ .. ، فـــإنهم لبثـــوا مـــدى يتســـاءلونْ
فى حـــيرةٍ مشـــبوبةٍ : "أيـــن اختفـــى هـــذا الأمـــين ؟ "
لكنـــهم علمـــوا بـــأنك فى الليـــالى الداجيـــةْ
حملتـــكَ غِيـــلانُ الظـــلام إلى الجبـــال النائيـــةْ
فنســـوكَ مثـــلَ النـــاسِ .. ، وانصرفـــوا إلى اللـــهو الجميـــلْ
بـــين الخمـــائلِ ، والجـــداولِ ، والـــروابى ، والسُّـــهولْ
ونسُـــوا وداعـــة وجـــهك الهـــادى ، ومنظـــرك الوســـيمْ
ونســـوا تغنِّيـــكَ الجميـــلَ بصوتـــكَ الحلـــوِ ، الرخيـــمْ
ومضـــوا إلى المَـــرْجِ البـــهيجِ ، يطـــاردون طيـــورَهُ

ويُزحزحــــون صُخـــورَهُ ، ويعـــابثونَ زهـــورَهْ
ويُشـيِّدون مـن الرمـالِ البيـضِ ، والحصبِ النضيرْ
غُرَفًـا ، وأكواخًـا تكلّلهـا الحشـائشُ والزهـورْ
ويُنضِّـدونَ مـن الرُّبـا ، بـين التضاحُكِ والحبـورْ
طاقـاتِ وردٍ ، آبـدٍ ، تُـزرى بـأوراد القصـور
يُلقونها فى النـهر ، قربانًـا لآلهـة السـرورْ
فتسـيرُ فى التيّـارِ ، راقصـةً علـى نَغـمِ الخريـرْ
كـل نسُـوك ، ولم يعـودوا يذكرونـك فى الحيـاةْ
والدَّهـر يدفـنُ فى ظـلام المـوتِ حـتى الذكريـاتْ
إلا فـؤادًا ، ظـلَّ يخفُـقُ فى الوجـود إلى لقـاك
ويـودُّ لـو بَـذلَ الحيـاة إلى المنيَّـةِ ، وافتـداك
فـإذا رأى طفـلاً بكـاكَ ، وإن رأى شـبحًا دعـاكْ
يصغـى لصوتِـكَ فى الوجـودِ ، ولا يـرى إلاَّ بهـاكْ
يصغـى لنغمتِـكَ الجميلـةِ فى خريـرِ السـاقيةْ
فى رنـة المزمـار ، فى لغـو الطيـور الشـاديةْ
فى ضَجَّـة البحـر المُجلجـل ، فى هديـر العاصفـه
فى لُجَّـةِ الغابـاتِ ، فى صـوتِ الرعـودِ القاصفـةْ

فى نُغيــــةِ الحَمـــــلِ الوديـــــع ، وفى أناشـــــيد الرعــــــاةْ
بـــين المـــــرُوجِ الخُضــــرِ والسَّـــفحِ المجلّـــلِ بالنبــــاتْ
فى آهـــــةِ الشـــــاكى ، وضوضــــاءِ الجُمُـــوعِ الصاخبـــــةْ
فى شـــــهقة البـــاكى يؤَجِّجُــــــــها نُــــواحُ النادبــــــة
فى كـــــلِّ أصــــواتِ الوجـــودِ : طَروبِـــــها وكئيبـــــها
ورخيمــــــــها ، وعنيفـــــها ، وبغيضــــها ، وحبيبــــــها
ويـــــراك فى صُـــــوَرِ الطبيعــــة : حلوهـــــا ، ودميمـــــــها
وحزينــــها وبهيجـــــها ، وحقيرهــــــا وعظيمـــــــــها
فى رفـــــة الفجـــــر الوديـــــع ، وفى الليــــــالى الحالمـــــةُ
فى فتنــــــة الشــــفق البديــــع ، وفى النجـــــــوم الباسمـــــةْ
فى رقـــص أمــــــواج البحـــيرة تحـــت أضـــواء النجـــومْ
فى ســـحر أزهـــار الربيـــع ، وفى تهـــاويل الغيـــــوم
فى لَمعـــــة الــــبرق الخفـــوق ، وفى هُـــويِّ الصاعقــــــةْ
فى ذِلـــة الــــوادى ، وفى كِــــبر الجبـــــال الشـــــاهقةْ
فى مَشْـــهَدِ الغـــابِ الكئيـــبِ ، وفى الـــورود [1] العاويــــةْ
فى ظُلمـــــةِ الليــــلِ الحزيـــنِ ، وفى الكـــهوفِ العاريــــــةْ

---

(1) الورود ـ جمع ورد : الأسد.

أعرفتَ هذا القلبَ في ظلماء هاتيك اللحودْ ؟
هو قلبْ أمِّكَ ، أمِّكَ السكرى بأحزانِ الوجودْ
هو ذلك القلبُ الذى سيعيشُ كالشادى الضريرْ
يشدُو بشكوى حزنِهِ الداجى إلى النَّفَسِ الأخيرْ
لا ربَّةُ النسيان ترحمُ حزنَهُ وترى شقاهْ
كلاّ ! ولا الأيامُ تبلى فى أناملها أساهْ
إلاّ إذا ضفرَتْ له الأقدارُ إكليلَ الجنونْ
وغدا شقيًّا ضاحكًا ، تلهو بمرآه السنونْ
هو ذلك القلبُ الذى مهما تقلّبت الحياةْ
وتدفّع الزّمنُ . المُدمدمُ فى شِعابِ الكائناتْ
وتغنَّتْ الدّنيا ، وغرَّد بلبلُ الغاب الجميلْ
سيظلُّ يعبدُ ذكرياتِكَ : لاَ يَمَلُّ ، ولا يميلْ
كالأرض : تمشى فوق تُربتها المسرَّةُ ، والشبابْ
والليلُ ، والفجرُ المُجنّحُ ، والعواصفُ ، والسحابْ
والحبُّ تنبتُ فى مواطنه الشقائقُ ، والورودْ
والموتُ تُحفرُ — أينما يخطو — المقابرُ واللحودْ
وتمرُّ بين فجاجها اللذات ، حالمةً ، تميدْ

سكرى . ، وأشواقُ الورى ترنو إلى الأفق البعيدْ ...

وتظلُّ ترقصُ للأسى ، للهوِ ، أشباحُ الدهورْ

حتى يواريها ضبابُ الموتِ فى وادى الدُّثورْ

وتظلُّ تُورِقُ ، ثمَّ تزهرُ ، ثمَّ ينشرها الصباحْ

للموتِ ، للشوْكِ المُمَزّقِ ، للجداولِ ، للرياحْ

بسمَاتُ ثَغْرٍ ، حالمٍ ، يفترُّ فى سهْوِ السرورْ

وورودُ روْضٍ ، باسمٍ ، يُصغِى لألحانِ الطيورْ

وتظلُّ تخفقُ ، ثم تشْدُو ، ثم يطوِيها الترابْ

قُبَلٌ ، وأطيارٌ ، تُغرِّدُ للحياةِ ، وللشبابْ

وتظلُّ تمشِى فى جِوَارِ الموتِ أفراحُ الحياةْ ! ..

ويغرِّدُ الشحرورُ ما بين الجماجم والرُّفاتْ

والأرضُ حالمةٌ : ، تغنِّى بين أسراب النجومْ

أنشودةَ الماضى البعيدِ ، وسُورةَ الأزلِ القديم .....

فى ظِلّ وادِى الموت

نحـــن نمشـــى ، وحولنـــا هاتـــه الأكـــوا
ن تمشـــى .. ، لكـــن لأيـــة غايـــه
نحـــن نشـــدو مـــع العصافـــير للشـــمس ،
وهـــذا الربيـــع ينفـــخ نايـــهْ
نحـــن نتلـــو روايـــة الكـــون للمـــوت
ولكـــن مـــاذا ختـــام الروايـــهْ
هكـــذا قلـــت للريـــاح فقـــالت :
"ســل ضمـــير الوجـــود : كيـــف البدايـــة ؟"

* * *

وتغشّـــى الضبـــاب نفســـى ، فصـــاحت
فى مَـــلالٍ مُـــرٍّ : "إلى أيـــن أمشـــى ؟"
قلـــت : "ســـيرى مـــع الحيـــاة .." فقـــالت :
(مـــا جنينـــا ، تـــرى ، مـــن الســـيْر أمـــس؟
فتـــهافت كالهشـــيم ــ علـــى الأرض

ونــــاديت : (أيـــن يـــا قلـــــب رفشـــــى ؟"

" هاتِـــــه ، علـــــنى أخـــــــط ضريحـــــى "

"فى سكـــــون الدجـــــى وأدفن نفســـــــــى

* * *

هاتِـــــهِ فـــــالظلام حــــولى كثيـــــــف ..."

" وضبــــــاب الأســــى مُنيـــــخ عليَّـــــا ..."

" وكـــــؤوس الغـــــرام أترعـــــها الفجـــــر ،"

" ولكـــــــن تحطَّمـــــــتْ فى يديَّـــــا ..."

" والشــــــباب الغريـــــر ولّـــــى إلى المـــــاضى"

" وخلّـــــى النحيـــــــبَ فى شـــــــفتيًّا ، "

" هاتــــه ، يــــا فــــؤادُ إنّـــا غريبـــان ،"

" نصــــوغ الحيـــــاة فنًّـــا شجيًّـــــا ..."

* * *

" قــــد رقصنـــا مــــع الحيــــاة طويــــلا .. "

" وشـــــدونْا مـــــع الشـــــباب ســـــنينا ... "

" وعَدونْــــا مـــــع الليـــــالى حُفـــــاةً ... "

" فى شِـــــعاب الحِيـــــاة حـــــتى دمِينـــا ..."

" وأكلنـــــا الـــــترابَ حتَّـــــى مللنـــــا ..."

" وشربنا الدموعَ ، حتى روِينا ... "

" ونثرنا الأحلامَ والحبّ والآلامَ ... "

" واليأسَ ، والأسى ، حيث شِينا ... "

* * *

" ثم ماذا ؟ هذا أنا : صرتُ فى الدنيا"

" بعيدًا عن لهوها وغِناها "

" فى ظلامِ الفناءِ ، أدفن أيّامى ، "

" ولا أستطيع حتى بكاها ? "

" وزهورُ الحياةِ تهوِي ، بصَمتِ "

" مُحْزنٍ ، مُضجرٍ ، على قدميَّا ، "

" جَفَّ سحرُ الحياةِ ، يا قلبيَ الباكى ، "

" فهيَّا ، نجرّبُ الموتَ .. ، هيَّا .. ! "

* * *

الجَـنَّة الضَّائِعة

كَـــمْ مـــن عُـــهودٍ عذبـــــةٍ فى عَـــدْوَةِ الـــوادى النضـــيرْ
فِضِّيـــةِ الأســـحار مُذْهَبَـــةِ الأصـــائل والبكـــور
كـــانت أرقَّ مـــن الزهـــور ، ومـــن أغـــاريد الطيـــور
وألـــذَّ مـــن ســـحر الصِّبـــا فى بَسْـــمَة الطفـــل الغريـــر
قضَّيتـــها ومعـــى الحبيبـــةُ لا رقيـــب ولا نذيـــر
إلا الطفولـــة حولنـــا تلـــهو مـــع الحُـــبِّ الصَّغـــير
أيـــام كـــانت للحيـــاة حـــلاوة الـــروض المطـــير
وطـــهارة المـــوج الجميـــل ، وسِـــحْرُ شـــاطئه المنـــير
ووداعـــة العصفـــور ، بـــين جـــداول المـــاء النمـــير
أيـــامَ لم نَعـــرف مـــن الدُّنيـــا ســـوى مَـــرَحِ السُّـــرور
وتَتبُّع النَّحْل الأنيقِ وقَطْـــفِ تيجـــان الزهـــور
وتســـلُّقِ الجبـــلِ المكلـــل بـــالصَنَوْبَر والصخـــور

وبنـــاء أكـــواخِ الطفولـــة تحـــت أعشـــاش الطيـــور
مســـقوفةً بـــالورد ، والأعشـــاب ، والـــورق النضـــير
نبـــنى ، فتهدمـــها الريـــاحُ ، فـــلا نضـــجٌّ ولا نثـــور
ونعـــود نضحـــك للمـــروج ، وللزَّنـــابقِ ، والغديـــر
ونخـــاطب الأصـــداء ، وهـــى تَـــرِفُّ فى الـــوادى المنـــير
ونعيـــد أغنيـــة الســـواقى ، وهـــى تلغـــو بـــالخرير
ونَظَـــلُّ نركـــض خلـــف أســـراب الفَـــراش المســـتطير
ونمـــرُّ مـــا بـــين المـــروج الخضـــر ، فى ســـكر الشـــعور
نشـــدو ، ونرقـــصُ ــ كـــالبلابلِ ــ للحيـــاة ، وللحبـــور
ونظـــل ننـــثرُ للفضـــاء الرَّحْـــبِ ، والنـــهرِ الكبـــير
مـــا فى فؤادَيْنَـــا مـــن الأحـــلام ، أو حُلْـــوِ الغـــرور
ونَشِـــيدُ فى الأُفـــق المخضَّـــب مـــن أمانينـــا قصـــور
أزهـــى مـــن الشـــفَقِ الجميـــل ، ورونْـــقِ المَـــرج الخضـــير
وأجـــلَّ مـــن هـــذا الوجـــود ، وكـــلِّ أمجـــاد الدهـــور
أبـــدًا ، تُذَلِّلنـــا الحيـــاةُ بكـــلِّ أنـــواع الســـرور
وتبـــثُّ فينـــا مـــن مـــراح الكـــون مـــا يغـــوى الوقـــور

فنسيرُ ، نَنْشُد لهوَنا المعبودَ - فى كل الأمور

ونظل نعبث بالجليل من الوجود ، وبالحقير

بالسائل الأعمى وبالمعتوهِ ، والشيخِ الكبير

بالقطة البيضاءِ ، وبالشاة الوديعة ، بالحمير

بالعشب ، بالفنن المنوِّر ، بالسنابل ، بالسفير

بالرْملِ ، بالصخر المحطَّم ، بالجداول ، بالغدير

واللهْوُ ، والعبَثُ البريءُ ، الحلوُ ، مطمحُنا الأخير

ونظل نقفز ، أو نُثرْثِرُ ، أو نغنى ، أو ندور

لا نسأم اللهوَ الجميلَ ، وليس يدركنا الفتور

فكأننا نحيا بأعصاب من المرَح المُثِير

وكأننا نمشى بأقدام مجنحة ، تطير

أيام كنا لُبَّ هذا الكون ، والباقى قشور

أيام تفرشُ سُبْلَنا الدنيا بأوراق الزهور

وتمرُّ أيام الحياة بنا ، كأسراب الطُّيور

بيضاءَ لاعبةً ، مُغرِّدةً مُجنَّحةً بنور

وتُرَفْرِف الأفراحُ فوق رؤوسنا أنّى نسير

* * *

آه ! تـــوارى فَجْـــرِيَ القُدســـيُّ فى ليــــل الدهـــــور
وفنَـــى ، كمـــا يفنَـــى النشـــيدُ الحلـــوُ فى صمـــت الأثـــير
أوَاهُ ، قـــد ضـــاعت علـــيَّ ســـعادةُ القلـــب الغريـــر
وبقيـــتُ فى وادى الزمـــان الجَـــهْمِ أدأبُ فى المســـير
وأدوسُ أشـــواك الحيـــاة بقلـــبيَ الدامـــى الكســـير
وأرى الأبـــاطيل الكثـــيرة ، والمـــآتم ، والشـــرور
وتصـــادُمَ الأهـــواء بـــالأهواء فى كـــل الأمـــور
وَمذلّـــة الحـــقِّ الضعيـــف ، وعـــزِّة الظلـــم القديـــر !
وأرى ابـــنَ آدمَ ســـائرًا فى رحْلَـــةِ العُمـــرُ القصـــير
مـــا بـــينَ أهـــوال الوجـــودِ ، وتَحـــتَ أعبـــاء الضَّمـــير
متســـلّقًا جَبَـــلَ الحيـــاةِ الوْعـــرَ ، كالشَّـــيخ الضَّريـــر
دامـــى الأكـــفِّ ، مُمَـــزّقَ الأقـــدَامِ ، مُغْـــبَرَّ الشـــعور
مُتْرنـــحّ الخطـــواتِ مـــا بـــين المزالـــق والصُّخـــور
هالتْـــهُ أشـــباحُ الظـــلامِ ، وراعـــهُ صـــوت القبـــور
ودويُّ أُعصـــار الأســـى ، والمـــوت ، فى تلـــك الوعـــورْ

* * *

ماذا جنيْت من الحياة ومن تجاريب الدُّهور
غيرَ الندامةِ والأسى واليأسِ والدمعِ الغزير ؟
هذا حَصادى من حقول العالَمِ الرَّحْبِ الخطير
هذا حصادى كلُّهُ ، فى يقظةِ العهدِ الأخيرْ

* * *

قد كنتُ فى زمنِ الطفولةِ ، والسذاجةِ ، والطهور
أحيا كما تحيا البلابلُ ، والجداولُ ، والزُّهور
لا نحفل ، الدنيا تدور بأهلها ، أو لا تدور
واليومَ أُحيا مُرْهقَ الأعصاب ، مشبوبَ الشعور
مُتأجِّجَ الإحساسِ ، أحفلُ بالعظيم ، وبالحقير
تمشى على قلبى الحياةُ ، ويَزْحَفُ الكونُ الكبير
هذا مصيرى ، يا بنى الدُّنيا ، فما أشقى المصير !

من أغانى الرعاة

حل الشاعر صيفًا بعين دراهم "من الشمال التونسى" مستشفيا . وهناك فوق الطبيعة العذراء الساحرة والغابات الملتفة الهائلة ، والجبال الشم المجللة بالسنديان قضى عهدًا شعريًا ، وادعًا خالصًا للشعر، والسحر والأحلام . وفى القصيد التالى صورة صغيرة من صور الحياة بين تلك الجبال ، والأوديةُ والغابات .

أقبل الصُّبْحُ يُغنِّى للحياةِ الناعسهْ
والرُّبى تحلمُ فى ظلِّ الغصونْ المائسهْ
والصِّبا تُرقِصَ أوراق الزهور اليابسهْ
وتَهادَى النُّور فى تلك الفِجاج الدامسهْ

* * *

أقبَلَ الصبحُ جميلاً ، يملأُ الأفْقَ بهاهْ
فتمطّى الزهرُ ، والطيْرُ وأمواجُ المياهْ
قد أفاقَ العالَمُ الحيُّ ، وغنَّى للحياهْ
فأفيقى يا خِرافى ، وهلِّمى يا شِياه

* * *

واتبعينى يا شِياهى ، بين أسراب الطيورْ
واملإى الوادى ثُغاءً ، ومِراحا وحبورْ
واسمعى همس السواقي ، وانشقى عطر الزهورْ
وانظرى الوادى ، يغشّيهِ الضبابُ المستنيرْ

* * *

واقطفى من كلأ الأرض ، ومَرعاها الجديدْ
واسمعى شبَّابتى تشدو ، بمعسول النشيدْ
نَغَمٌ يَصْعَدُ مِنْ قلبى ، كأنفاسِ الورودْ
ثمَ يَسْمُو طائرًا ، كالبلبل الشادى السعيدْ

* * *

وإذا جئْنا إلى الغابِ ، وغَطّانا الشجرْ

فاقطفي ما شئتِ مِنْ عُشْبٍ ، وزَهْرٍ وثَمَرْ
أرضَعَتْهُ الشّمْسُ بالضوءِ ، وغذّاه القَمَرْ
وارتَوَى من قَطَراتِ الطّلِ في وَقْتِ السَّحَرْ

* * *

وامْرَحِي ما شئتِ في الوديان ، أو فوقَ التلالْ
واربضي في ظلها الوارف ، إن خِفتِ الكلالْ
وامضغي الأعشابَ ، والأفكار في صمت الظلالْ
واسمعي الريح تُغنِّي ، في شماريخِ الجبَالْ
إن في الغاب أزاهيرًا ، وأعشابًا عِذابْ
يُنْشِدُ النّحْلُ حوالَيْها ، أهازيجًا طرابْ
لم تُدَنِّس عِطرَها الطاهرَ أنفاسُ الذئابْ
لا ، ولا طَافَ بها الثعلبُ في بعضِ الصِّحابْ !

* * *

وشذًا حلوًا ، وسِحْرًا ، وسلامًا ، وظِلالْ
ونَسيمًا ساحِرَ الخطوةِ ، موفورَ الدلالْ
وغصونًا يَرْقُصُ النورُ عليها ، والجمالْ

واخضــــرارًا أبديًــا ، ليــــس تَمْحُـــــــوه الليــــالْ

* * *

لــن تَمَلِّــى ، يــا خــراف ، فى حمـــــى الغـــاب الظليـــلْ

فزمــانُ الغـــاب طفـــلٌ ، لاعـــبٌ ، عـــذبٌ جميـــلْ

وزمــانُ النـــاس شَــيْخٌ ، عــابسُ الوجـــه ، ثقيـــلْ

يتمشّى فى مــلال ، فـــوق هاتيـــك السهـــولْ

* * *

لـــكِ فى الغابـــات مرعـــاكِ ، ومســـعاكِ الجميـــلْ

وليَ الإنشـــادُ ، والعـــزفُ إلى وقـــتِ الأصيـــلْ

فــإذا طـــالتْ ظِـــلالُ الكـــلإ ، الغـــضّ ، الضئيـــلْ

فهلمّى نُرجـــعِ المسعـــى إلى الحـــيّ النبيـــلْ

* * *

الصَّباحُ الجديد

اسكنى يا جرَاحْ ... واسكتى يا شجونْ
مات عهد النواحْ ... وزمان الجنونْ
وأطلَّ الصباحْ ... مِنْ وراء القرونْ

* * *

فى فجاج الرَّدى ... قد دفنت الألَمْ
ونثرتُ الدُّموعْ ... لرياحِ العَدمْ
واتَّخذتُ الحياة ... مِعزفًا للنَّغمْ
أتغنى عليه ... فى رحاب الزمان

* * *

وأذبتُ الأسَى ... فى جمالِ الوجودْ
ودحوتُ الفؤادْ ... واحةً للنشيدْ
والضيا والظلالْ ... والشّذَى والورودْ
والهوى والشبابْ ... والمنى والحنانْ

* * *

اســــكنى يـــــا جـــــرَاحْ — واســـــكتى يـــــا شـــــجونْ
مـــات عــــــهد النــــواحْ — وزمـــــــان الجنـــــــونْ
وأطـــــلَّ الصبـــــــاحْ — مِـــــنْ وراء القـــــــرونْ

* * *

فى فــــؤادى الرحيـــــبْ — معبـــــــدٌ للجمـــــــال
شـــــيَّدتْه الحيـــــــاة — بـــــالرُّؤى ، والخيــــــال
فتلـــــوْتُ الصـــــــلاة — فى خشــــوع الظـــــلال ...
وحرقـــــــت البخــــــور — وأضـــــأتُ الشـــــموعْ ..

* * *

إن سِـــــحْرَ الحيـــــــاة — خـــــالدٌ لا يـــــــزولْ
فعــــــلام الشـــــــكاه — مـــــن ظــــلامِ يحـــــولْ
ثمَّ يــــــأتى الصبــــــاح — وتـــــمُر الفصــــول ... ؟
ســــوف يــــأتى ربيـــعْ — إن تقضَّــــى ربيـــــع

* * *

اسكنى يا جراحْ … واسكتى يا شجونْ
مات عهد النواحْ … وزمان الجنونْ
وأطلَّ الصباحْ … مِنْ وراء القرونْ

* * *

من وراء الظلامْ … وهدير المياهْ
قد دعانى الصباحْ … وربيعُ الحياةْ
يا له من دُعَاءْ … هزَّ قلبى صداهْ !
لَمْ يَعُدْ لى بَقاءْ … فوق هذى البقاعْ

* * *

الوَداعَ ! الوَداعَ ! … يا جبالَ الهمومْ
يا ضبابَ الأسى ! … يا فِجاجَ الجحيمْ !
قد جرى زورْقِى … فى الخضمِّ العظيمْ ..
ونشرتُ القلاعْ .. … فالوَداعَ ! الوَداعْ !

* * *

ألحانُ السكْرَى

قــد ســكرنا بحبنـــا واكتفينـــا

يا مديرَ الكـــؤوسِ فـــاصرف كؤوســك

واسكبِ الخمرَ للعصافـــيرِ والنحـــلِ

وخـــلِّ الـــثرى يَضُـــم عروسَــكْ

* * *

مالنـــا والكـــؤوس ، نطلـــب منـــها

نشـــوةً والغـــرامُ ســـحرٌ وسُـــكرُ !

خَلِّنا منـــك ، فـــالربيع لنـــا ســاقٍ

وهـــذا الفضـــاءُ كـــاسٌ وخمـــر !

* * *

نحن نحيا كالطير ، فى الأُفق الســـاجى

وكـــالنحل ، فـــوق غـــضِّ الزهـــور

لا نـــرى غـــيرَ فتنـــةِ العـــالم الحـــيِّ

وأحـــلامِ قلبـــها المســـحور ...

* * *

نحن نلهو تحتَ الظـــلالِ ، كطفلـــين

ســـعيدين ، فى غُـــرور الطفولـــهْ

وعلى الصخرةِ الجميلـــةِ فى الـــوادى

وبـــين المخـــاوفِ المجهولـــهْ

نحن نغدو بـين المـروج ونُمسـي
ونغنِّـي مـع النسـيم المغنِّـي
ونناجى روحَ الطبيعةِ فى الكـون
ونُصغـي لقلبـها المتغـنِّ

* * *

نحن مثل الربيع : نمشى على أرضٍ
مـن الزهـر ، والـرؤى ، والخيـالِ
فوقها يرقـص الغـرام ، ويلـهو
ويغنِّـي فى نشـوةٍ ودلالِ

* * *

نحن نحيا فى جنة من جِنان السـحر
فى عـالمٍ بعيـدٍ ... ، بعيـدٍ ... ،
نحن فى عُشِّـنا المُـوَرَّدِ ، نتلـو
سُـوَرَ الحـبِّ للشـبَّابِ السـعيدِ

* * *

قد تركنا الْوجودَ للنـاس ، فليقـ
ـضُـوا الحيـاةَ كيـف أرادوا
وذهبنـا بلبِّـهِ ، وهـو روحٌ
وتركنـا القشـورَ ، وَهْـيَ جَمـادُ

* * *

قد سـكرنا بحبنـا ، واكتفينـا
طَفـحَ الكـأس ، فـاذهبوا يـا سُـقاةُ

نحن نحيـــا فـــلا نريـــد مزيـــدًا
حســـبنا مـــا منحتِنـــا ، يـــا حيـــاةُ

* * *

حسبنا زهرُنـــا الـــذى نَتَنشَّـــى
حسْـــبنا كأسُـــنا الـــتى نترشّـــفْ
إنَّ فى ثغرنـــا رحيقًـــا سماويًّـــا
وفى قلبنـــا ربيعًـــا مفـــوَّفْ

* * *

أيها الدهرُ ، أيها الزمنُ الجـــارى
إلى غـــير وُجهـــةٍ وقـــرار !
أيها الكونُ ! أيها الفلكُ الـــدَّوَّارُ
بـــالفجر ، والدجـــى ، والنـــهارُ !

* * *

أيها الموتُ ! أيها القدرُ الأعمـــى !
قِفُـــوا حيـــث أنتُـــمُ ! أو فســـيرُوا
ودعونا هنا : تُغنِّى لنـــا الأحـــلامُ
والحـــبُّ ، والوجـــودُ ، الكبْـــيرُ

* * *

وإذا مـــا أَبيْتُـــم ، فاحملونـــا
ولهيـــبُ الغـــرامِ فى شـــفتيْنا
وزهورُ الحيـــاةِ ، تعبـــقُ بـــالعطرِ
وبالسحرِ ، والصِّـــبا فـــى يـــدْينـــا

إرادةُ الحياة

إذا الشــعبُ يومًــــا أراد الحيـــاة

فلابـــدَّ أن يســـتجيب القـــدرْ

ولابـــد للّيـــــلِ أن ينجلـــــى

ولابـــدّ للقيـــــد أن ينكســــرْ

ومــن لم يعانقْــهُ شَــوْقُ الحيـــاة

تبخَّـــرَ فى جوِّهـــا ، واندثــــرْ

فويــلٌ لمــن لم تَشُـــقْهُ الحيـــاة

مــن صفْعـــــةِ العـــدَم المنتصــرْ

كذلــك قـــالت لِيَ الكائنـــاتُ

وحدَّثـــنى روحُـــها المســـتترْ

* * *

ودمدمت الرِّيـــحُ بـين الفِجــاج

وفــوق الجبــال وتحــت الشـــجرْ :

" إذا مـــا طمحـــتُ إلى غايـــةٍ

ركبـــتُ المُــنى ، ونسِـيتُ الحـــذرْ "

" ولم أتجنّبْ وعورَ الشِّعاب
ولا كُبَّةَ اللّهَب المستعرْ "

" ومن لا يحبَّ صعودَ الجبالِ
يَعِشْ أبدَ الدهر بين الحُفَرْ "

فعجَّتْ بِقلبى دماءُ الشباب
وضجّت بصدرِى رياحٌ أخر ...

وأطرقتُ ، أُصغى لقصفِ الرعودِ
وعزفِ الرياحِ ، ووقعِ المطرْ

* * *

وقالت لِيَ الأرضُ - لما سألتُ " أيا أمُّ هل تكرهين البشرْ"؟ :

" أبارك فى الناس أهلَ الطموح ومن يستلذُّ ركوبَ الخطرْ "

" وألْعنُ من لا يماشى الزمانَ ، ويقنع بالعيْش عيشَ الحجَرْ "

" هو الكون حيٌّ ، يحبُّ الحياة ويحتقر المَيْتَ مهما كَبُرْ "

" فلا الأُفقِ يحضُنُ ميْتَ الطيورِ ، ولا النحلُ يلثُمُ ميْتَ الزهرْ "

" ولولا أُمومةُ قلبِى الرؤوم لَمَا ضمّتِ الميْتَ تلك الحُفَرْ "

" فويلٌ لمن لم تشُقْهُ الحياةُ ، مِنْ لعنةِ العدمِ المنتصرْ ! "

* * *

وفى ليلـة مـن ليـالى الخريـف مثقّلـةٍ بالأسـى والضجـرْ
سـكرتُ بهـا مـن ضيـاء النجـوم وغنّيْـتُ للحُـزْنِ حـتى سـكرْ
سـألتُ الدجـى : هـل تُعيـدُ الحيـاةُ لمـا أذبلتـه ربيـعَ العُمُـرْ ؟
فلـم تتكلّـمْ شـفاهُ الظـلامِ ولم تـترنَّمْ عـذارى السَّـحَرْ
وقـال لِيَ الغـابُ فى رقـةٍ مُحَبَّبـةٍ مثـلِ خفْـقِ الوَتَـرْ :
" يجـيءُ الشـتاءُ ، شـتاءُ الضبـابِ ، شـتاءُ الثلـوجِ ، شـتاءُ المَطَـرْ"
" فينطفيءُ السِّحرُ ، سحر الغصـون ، وسـحرُ الزهـور ، وسـحر الثَّمـرْ"
" وسحرُ السـماء ، الشـجيُّ ، الوديـعُ ، وسـحرُ المـروج ، الشـهيُّ ، العطِـرْ"
" وتهـوى الغصـونُ ، وأوراقَـها وأزهـارُ عـهدٍ حبيـبٍ نضِـرْ"
" وتلـهو بهـا الريـحُ فى كـلِّ وادٍ ويدفنـها السـيلُ ، أنَّـى عَبَـرْ"
" ويفـنى الجميـعُ كحُلْـمٍ بديـع ، تـألّق فى مهجـةٍ واندثـرْ"
" وتبقـى البـذورُ ، الـتى حُمِّلَـتْ ذخـيرةَ عُمْـرٍ جميـلٍ ، غَـبَرْ"
" وذكرى فصولٍ ، ورؤيـا حيـاةٍ ، وأشـباحَ دنيـا ، تلاشـتْ زُمَـرْ"
" معانقةً ــ وهـى تحـت الضبـاب ، وتحـت الثلـوج ، وتحـت المَـدَرْ"
" لِطَيْفِ الحيـاةِ الـذى لا يُمَـلُّ ، وقلـبِ الربيـعِ الشـذىِّ الخضِـرْ"
" وحالمـةً بأغانى الطيـورِ ، وعِطْـرِ الزهـورِ ، وطعـمِ الثَّمَـرْ"

* * *

" ويمشى الزمانُ ، فتنمو صــــروفٌ ، وتــذوِى صــروفٌ ، وتحيــا أُخــرَ "
" وتُصبِــحُ أحلامُـــها يقْظـــــةً ، مُوَشَـــحةً بغمــــوضِ السَّـــحَر "
" تُسائلُ : أين ضبـــاب الصبــاحِ ، وسِـحْرُ المســاءِ ؟ وضــوءُ القَمَــرْ ؟ "
" وأســرابُ ذاكَ الفَــراشِ الأنيــقِ ؟ ونحــلٌ يغنِّــى ، وغيــمٌ يَمُــرْ ؟ "
" وأيــن الأشــعَّةُ والكائنــاتُ ؟ وأيــن الحيــاةُ الــتى أنتظِــرْ ؟ "
" ظمِئتُ إلى النورِ ، فــوق الغصــون ! ظمِئــتُ إلى الظــلِّ تحــتَ الشَّــجَرْ ! "
" ظمِئتُ إلى النبْعِ ، بــين المــروج ، يغنَــى ، ويرقــصُ فــوقَ الزَّهَــرْ ! "
" ظمئــتُ إلى نَغَمــات الطيــور ، وهَمْــسِ النّسِــيمِ ، ولحــن المطــرْ ، "
" ظمئــتُ إلى الكــونِ ! أيــن الوجــودُ وأنى أرى العــالَمَ المنتظــــر ؟ "
" هـــو الكـــونُ ، خلف سُبَاتِ الجمودِ ، وفى أُفُــقِ اليقظــاتِ الكُــبَرْ "
" ومــا هــوِ إلا كخفــق الجنــاح حــتى نمــا شــــوقُها وانتصــرْ "
" فصَدَّعتِ الأرضَ مـــن فوقــها وأبْصــرت الكــونَ عــذبَ الصُّــورْ "
" وجــاء الربيــعُ ، بأنغامـــــه . وأحلامـــه ، وصِبَـــاه العطِـــرْ "
" وقبَّلــها قُبَــلاً فى الشــفاه ، تعيــد الشــباب الــذى قــد غَــــبَرْ "
" وقالَ لهـــا : قــد مُنحْــتِ الحيــاةَ ، وخُلِّــدْتِ فى نسـلِك المُدَّخَــرْ "
" وبارَكَكِ النُّورُ ، فاســـتقبلى .. شــبابَ الحيــاةِ وخِصْــبَ العُــمُرْ "
" ومــن تعبــد النــورَ أحلامُــه ، يُبَارِكُــهُ النُّــورُ أنـّــى ظـــهرْ "

" إليكِ الفضاء ، إليكِ الضياءَ ، إليك الثرى ، الحالمَ ، المزدهرْ ! "

" إليكِ الجمالَ الذى لا يَبيدُ ! إليكِ الوجودَ ، الرحيبَ ، النضِرْ ! "

" فميدِى ــ كما شئتِ ــ فوق الحقولِ ، بحلوِ الثمارِ وغضّ الزَّهَرْ "

" وناجى النسيمَ ، وناجى الغيومَ ، وناجى النجومَ ، وناجى القمرْ "

" وناجى الحياةَ وأشواقَها ، وفتنةَ هذا الوجود الأَغَرْ "

* * *

" وشفَّ الدجى عن جمالٍ عميقٍ ، يشبُّ الخيالَ ، ويُذكى الفِكَرْ "

" ومُدَّ على الكون سِحرٌ غريبٌ ، يُصرِّفُهُ ساحرٌ مُقتدِرْ "

" وضاءت شموعُ النجوم الوضاء ، وضاع البَخُورُ ، بَخُورُ الزَّهَرْ "

" ورفرف روحٌ ، غريبُ الجمالِ بأجنحةٍ من ضياءِ القَمَرْ "

" ورنَّ نشيدُ الحياة المقدَّسُ فى هَيْكَلٍ ، حالمٍ ، قد سُحِرْ "

" وأُعلِنَ فى الكونِ أنَّ الطموحَ لهيبُ الحياةِ ، وروحُ الظَّفَرْ "

" إذا طمحتْ للحياةِ النفوسُ فلابدَّ أنْ يستجيبَ القَدَرْ ! "

إلى الشَّعْب

أين يا شعبُ قلبُكَ الخـــافقُ الحسَّـــاسُ ؟
أيـــــن الطمـــــوحُ ، والأحـــــــلامُ ؟

أين يا شعبُ ، روحُك الشاعرُ الفنَّـلنُ ؟
أيـــــن الخيـــــالُ والإلهـــــامُ ؟

أين يا شعب ، فنُّكَ ، الساحرُ الخـــلاّقُ ؟
أيـــــن الرســـــومُ والأنغـــــام ؟

إنَّ يمَّ الحيـــاةِ يـــــدوّى حوالَيْـــــكَ
فـــأين المُغـــــامِرُ ، المقـــــدامُ ؟

أيـــن عـــزمُ الحيـــاة ؟ لا شـــيءَ إلاَّ
الموتُ ، والصَّمتُ والأســـى ، والظـــلامُ

عُمُـــرٌ مَيِّـــتٌ ، وقلـــبٌ خـــــوآءٌ
ودمٌ ، لا تثـــــــــــــيرهُ الآلامُ

وحياةٌ ، تنـــامُ فى ظلمـــةِ الـــوادى
وتنمـــو مـــــن فوقـــها الأوهـــام

أيُّ عيـــشٍ هـــذا ، وأيُّ حيـــاة ؟ !
" رُبَّ عَيْشٍ أَخـــفُّ منه الحِـــمـــَامُ "

* * *

قد مشتْ حولكَ الفصولُ وغنَّتْـــكَ
فلـــم تبتـــهجْ ، و لم تـــترنَّمْ
ودَوَتْ فوقك العواصفُ والأنـــواء
حـــتى أوْشَـــكْتَ أن تتحطّـــمْ
وأطافَتْ بكَ الوحـــوشُ وناشـــتك
فلـــم تضطـــربْ ، و لم تتـــألمْ
يا إلهي ! أما تحـــسُّ ؟ أمـــا تشـــدو ؟
أمـــا تشـــتكى ؟ أمـــا تتكلّـــمْ ؟
مَـــلّ نهْـــرُ الزَّمـــانِ أيَـــامَكَ الموتَـــى
وأنقـــاضَ عُمْـــرِكَ المُتَـــهَدِّمْ
أنـــتَ لا مَيِّـــتٌ فيبلَـــى ، ولا حـــيٌّ
ليمشـــى ، بـــل كـــائنٌ ، ليـــس يُفْـــهَمْ
أبـــدا يرمـــقُ الفـــراغَ بطـــــرفٍ
جـــامدٍ ، ولا يـــرى العوالِـــمَ ، مُظْلِـــمْ

أيُّ سِحْرٍ دهاكَ ، هل أنتَ مســـحورٌ

شـــقيٌّ ؟ أو مـــاردٌ ، يتـــــهكّمْ ؟

* * *

آه ! بل أنت فى الشـــعوب عجــوزٌ ،

فيلســـــوفٌ ، مُحَطَّـــــمٌ فى إهابــــه

ماتَ شوق الشباب فى قلبه الـــذاوى ،

وعــــزمُ الحيـــــاة فى أعصابـــــهْ

فمضى ينشد السلامَ .. ، بعيـــدًا ...

فى (قبور الزمان) خلــفَ هــضـــابِه

وهناكَ اصطفى البقاءَ مع الأمــوات ،

فى "قـــبر أمســـه" غـــيرَ آبِـــهْ ...

وارتضى القبرَ مســـكنًا ، تتلاشـــى

فيـــه أيـــامُ عُمْـــرِهِ المُتشـــابِهْ

وتناسى الحياةَ ، والزَّمَـــنَ الــدَّاوِى

ومـــا كـــان مِـــنْ قـــديم رِغابِـــهْ

فالْزَمِ القبر ... فـــهو بيـــتٌ ، شـــبيهٌ

بـــكَ فى صمـــتِ قلبِـــهِ ، وخرابِـــهْ

وأعْبدِ "الأمس" وادَّكِرْ صُوَرَ المـــاضى

فدُنْيــا العجــوز ذِكــرى شــبابِهْ ...

* * *

وإذا مَـــرَّت الحيـــاةُ حوالَيْـــك

جميــلاً ، كــالزهر عضًّــا صِباهـــا

تتغنــــّى الحيـــاةُ بالشـــوقِ والعـــزمِ

فيُحْيِـــى قلـــبَ الجمـــــاد غِناهـــا

والربيـــعُ الجميـــلُ يرقـــصُ فـــوق

الوردِ ، والعشبِ ، مُنْشِدًا ، تيـّــاهـــا ومشـــى

النــــاسُ خلفـــها ، يتملّــــوْن

جمـــالَ الوجـــــود فى مَرْآهـــــا

فاحْذَرِ السِّحْرَ أيها الناسكُ القِدّيـــسُ ،

إنَّ الحيـــاةَ يُغْـــــوى بَـــــهاها

والربيعُ الفَــــنَّانُ شـــاعِرُها المفتـــونُ

يُغــــرِى بحُبِّـــــها وهواهـــــا

وَتَمَلَّ الجمالَ فى رِمَـــم الموتـــى .. !

بعيـــدًا عـــن ســــحرها وصداهـــا

وتَغَـزَّلْ بسـحرِ أيـامِكَ الأولى

وخَـلِّ الحيـاةَ تخطـو خطاهـا

* * *

وإذا هبَّتِ الطيـورُ مـع الفجـرِ ،

تُغنِّـى بـين المـروج الجميلـةْ

وتُحَيِّى الحيـاةَ ، والعَـالَمَ الحـيَّ ،

بصـوتِ المحبَّـةِ المعسـولةْ

والفراشُ الجميلُ رَفْرَفَ فى الـروضِ ،

ينـاجى زهـوره المطلولـةْ

وأفاقَ الوجودُ لِلْعمـلِ المُجْـدِى

وللسّـعى ، والمعـانى الجليلـةْ

ومشى الناسُ فى الشِّعابِ ، وفى الغـابِ ،

وفـوق المسـالكِ المجهولـةْ

ينشدون الجمالَ ، والنُّورَ ، والأفـراحَ

والمجـدَ ، والحيـاةَ النبيلـةْ

فاغضض الطرفَ فى الظلامِ ! وحـاذِرْ

فِتْنة النُّـورِ . ! فـهْيَ رؤيَـا مَهولـةْ ..

وصبـــاحُ الحيـــاةِ لا يُوقِـــظُ المَوْتَـــى

ولا يرحـــمُ الجفـــونَ الكليلـــةْ

* * *

كلُّ شيءٍ يعـــاطِف العـــاَلَم الحـــيَّ ،

ويُذكِـــى حياتـــه ، ويُفيـــدُهْ

والذى لا يُجاوِبُ الكونَ بالإحســـاسِ

عِـــبءٌ علـــى الوجـــود ، وجُـــودُهْ

كلُ شـــيءٍ يســـايرُ الزمـــنَ الماشـــى

بعـــزمٍ حـــتى الـــترابُ ودودُهُ

كلُّ شيء ــ إلاّكَ ــ حيٌ ، عطـــوفٌ

يُؤنِـــسُ الكـــونَ شَـــوْقُه ، ونَشـــيدُهْ

فلِماذا تعيشُ فى الكونِ يـــا صـــاحِ !

ومـــا فيـــكَ مـــن جنًـــى يســـتفيدُهْ؟

لســـتَ يـــا شـــيخُ للحيـــاةِ بـــأَهْلٍ

أنـــت داءٌ يُبيدُهَـــا وتُبيـــدُهْ

أنـــت قَفْـــرٌ جـــهنَّميٌّ لَعِـــينٌ ،

مُظلـــمٌ ، قـــاحلٌ ، مُريـــعٌ جمـــودُهْ

لا تُـــرِفُّ الحيـــاة فيـــه ، فـــلا طـــيرٌ
يُغنِّـــــى ، ولا ســــحابٌ يَجُـــودُهُ

* * *

أنـــتَ يـــا كـــاهنَ الظـــلامِ حيـــــاةٌ
تعبدُ المـــوتَ .. ! أنـــت روحٌ شـــقيٌّ
كافرٌ بالحيـــاةِ والنُّـــورِ .. ، لا يُصغـــى
إلى الكـــون قلبُـــهُ الحَجَـــريُّ
أنت قلبٌ ، ولا شـــوقَ فيـــه ولا عـــزمَ
وهـــذا داءُ الحيـــاةِ الـــدَّوِيُّ
أنـــتَ دنيـــا ، يُظِلُّـــها أفـــقُ المـــاضى
وليـــلُ الكآبـــةِ الأبـــديُّ
مـــات فيـــها الزمـــانُ ، والكَـــوْنُ إلاَّ
أمسُهها الغابرُ ، القـــديمُ ، القـــصِيُّ
والشـــقيُّ الشـــقيُّ فى الأرضِ قلـــبٌ
يَومُـــهُ مَيِّـــتٌ ، وماضيـــه حـــيُّ
أنتَ لا شـــيءَ فى الوجـــودِ ، فغـــادِرْهُ
إلى المـــوتِ فَـــهْوَ عنـــكَ غَنِـــيُّ

نشــيدُ الجبّار

أو (هكذا غنى بروميثيوس)

ســأعيش رغــمَ الـــداء والأعــــداءِ
كالنِّســر فـــوق القِمَّـــةِ الشـــماءِ
أرنو إلى الشـــمسِ المضيئـةِ . ، هازئًــا
بالسُّــحْبِ ، والأمطــارِ ، والأنــواء ...
لا أرمقُ الظـــلَّ الكئيــبَ .. ، ولا أرى
مــا فى قــرار الهُــوّة الســـوداءِ ...
وأســيرُ فى دنيــا المشــاعر ، حالمًــا ،
غَــرِدًا - وتلــك ســعادة الشــعراءِ -
أُصغِى لموســـيقى الحيــاةِ ، ووحْيــها
وأُذيــبُ روحَ الكـــونِ فى إنشـــائى
وأصُيــخُ للصــوتِ الإلهــيِّ ، الــذى
يُحــيى بقلـــبى ميّـــتَ الأصـــداء

* * *

وأقــولُ للقَــدَرِ الــذى لا ينثـــنى
عــن حــرب آمــالى بكــل بـــلاءِ :

" لا يطفىءُ اللهبَ المؤجَّجَ فى دمــــى
مــوجُ الأســى ، وعواصـــف الأرزاءِ "

" فاهدم فؤادى ما استطعتَ ، فإنــــه
ســيكون مثــل الصخـــرة الصمـــاءِ "

" لا يعرف الشكوى الذليلـــةَ والبكـــا
وضَراعَـــة الأطفـــال والضعفـــاء "

" ويعيـــش جبَّــارًا ، يحـدِّقُ دائمًـــا
بالفجرِ .. ، بالفجرِ الجمـيلِ ، الـــنائى "

" واملأ طريقى بالمخاوفِ ، والدجــى ،
وزوابـــعِ الأشـــواك ، والحصبـــاء "

" وانشرْ عليه الرُّعبَ ، وانـــثر فوقــه
رُجــمَ الــرّدى ، وصواعــقَ البأســاء "

" سأظلُّ أمشى رغم ذلـــك ، عازفًـــا
قيثـــارتى ، مترنمًــــا بغنــــائى "

" أمشـــى بـــروحٍ حــالمٍ ، مُتَوَهِّـــجٍ
فى ظُلمــــــــــــةِ الآلامِ والأدواءِ "

" النـــور فى قلـــبى وبـــين جوانحـــى
فعـــلام أخشـــى الســير فى الظلمـــاءِ ! "

" إنى أنـــا النـــايُ الـــذى لا تنتـــهى
أنغامُـــهُ ، مـــا دامَ فى الأحيـــاءِ "

" وأنا الخضمُّ الرحبُ، ليـــس تزيـــده
إلا حيـــاةً ســـــطوةُ الأنـــواءِ "

" أمَّا إذا خمدت حيـــاتى ، وانقضـــى
عُمــرى ، وأخرســتِ المنيَّـــةُ نـــائى"

" وخبا لهيبُ الكونِ فى قلـــبى الــذى
قـــد عـــاش مثـــلَ الشـعلةِ الحمـــراءِ "

" فأنـــا الســـعيدُ بـــأننى مُتَحَـــوِّلٌ
عـــن عـــالمِ الآثـــامِ ، والبغضـــاءِ "

" لأذوبَ فى فجرِ الجمالِ الســـرمديِّ
وأرتـــوى مـــن مَنْـــهَلِ الأضـــواء "

* * *

وأقـــول للجمـــع الذيـــن تجشـــموا
هدمِـــى وودوا لـــو يخـــرُّ بنـــائى

ورأوا علـــى الأشـــواك ظلّـــى هـــامدًا
فتخيَّلُـــوا أنِّـــى قضيْـــتُ ذَمـــائى

وغَدَوْا يَشُـــبُّونَ اللـــهيبَ بكـــلِّ مـــا
وجـــدوا .. ، ليشوُوا فوقـــه أشـــلائى

ومضَـــوْا يمـــدّون الخـــوان ، ليـــأكلوا
لحمـــى ، ويرتشـــفوا عليـــه دمـــائى

إنى أقــولُ لهــم – ووجــهى مشــرقٌ
وعلــى شــفاهى بســمةُ اســـتهزاء – :
" إن المعـــاولَ لا تهـــدُّ منـــاكبى
والنـــار لا تـــأتى علـــــى أعضـــائى "
" فارموا إلى النار الحشائش .. ، والعبـــوا
يـــا معشـــرَ الأطفـــالِ تحـــت سمـــائى "
" وإذا تمـــرَّدت العواصـــف ، وانتشـــى
بـــالهولِ قلـــبِ القُبَّـــة الزرقـــاء "
" ورأيتمـــونى طـــــائرًا ، مترنِّمًـــا
فـــوق الزوابـــع ، فى الفضـــاء النـــائى "
" فارموا على ظلّى الحجارةَ ، واختفـــوا
خـــوْفَ الريـــاحِ الهُـــوجِ والأنـــواء ... "
" وهناكَ ، فى أمْنِ البيوت ، تطـــارحوا
غَـــثَّ الحديـــث ، وميِّـــتَ الآراء "
" وترنَّموا – ما شـــئتمُ – بشـــتائمى
وتجـــاهروا – مـــا شـئتُمُ – بِعدائـــى "
" أمـــا أنـــا فـــأجيبكم مـــن فوقكـــم
والشـــمسُ والشـــفقُ الجميـــل إزائـــى : "
" من جاش بـــالوحى المقـــدَّسِ قلبُـــهُ
لم يحتفِـــلْ بحجـــــارةِ الفُلَتـــاءِ "

شكوى ضائعة

يا ليلُ ! ما تصنع النفسُ التي سـكنت
هذا الوجودَ ، ومِـنْ أعدائـها القـدرُ ؟
ترضى وتسكت ؟ هذا غـير محتمـل !
إذًا ، فـهل ترفـض الدنيـا ، وتنتحـرُ ؟
وذا جنونٌ لَعَمْـرِى ، كلُّـه جَـزَعٌ
بـاك ، ورأيٌ مريـضٌ ، كلُّـه خَـوَرُ ؟
فإنما المـوتُ ضـربٌ مـن حبائِلـهً
لا يُفلتُ الخلقُ ما عاشوا ، فمـا النظرُ !
هذا هـو اللغْـزُ ، عَمَّـاه وَعَقَّـدَهُ
على الخليقـة ، وحـشٌ ، فـاتكٌ حَـذِرُ
قد كَبَّـلَ القـدرُ الضـارى فرائسَـه
فما اسـتطاعوا له دفعًـا ، ولا حَـزروا
وخَاطَ أعينَـهم ، كـى لا تشـاهده
عـينٌ ، فتعلـم مـا يـأتى ومـا يـذَرُ
وحاطـهم بفنـونٍ مـن حبائلـه
فمـا لهـم أبـدًا مـن بطشـه وزَرُ
لا الموت يُنقذهم من هـول صولتـه
ولا الحياةُ . تَسَـاوَى النـاسُ والحجـرُ !
حَارَ المساكينُ ، وارتاعوا ، وأعجَزَهم
أن يحذروه ، وهـل يُجديـهِمُ الحـذَرُ ؟

وهـــم يعيشـــون فى دنيـــا مشـــــيَّدة
من الُخطوب ، وكـــونٍ كلِّـــهِ خَطَـــرُ ؟
وكيف يحذرُ أعمَى ، مُدلِـــجٌ ، تَعِـــبٌ ،
هـــولَ الظـــلام ، ولا عـــزمٌ ولا بَصَـــرُ ؟
قـــد أيقنـــوا أنـــه لا شـــيء يُنقذهـــم
فاستسلموا لسكون الرعب ، وانتظـــروا ..
ولـــو رأوه لســـارت كـــى تحاربـــــه
مـــن الـــورى زُمَـــرٌ ، فى إثرهـــا زمـــر
وثـــارت الجـــنُّ ، والأمـــلاك ناقمـــــةً
والبحرُ ، والبَرُّ ، والأفـــلاكُ ، والعُصـــرُ
لكنـــــه قـــــوَّةٌ تُملـــــى إرادتهـــــــا
ســـرًا ، فَنَعنُـــــو لهـــــا قـــــهرًا ، ونـــأتمر
حقيقـــةٌ مُـــرَّةٌ ، يـــا ليـــل ، مُبْغضَـــــةٌ
كـــالموتِ ، لكـــنْ إليـــها الـــوُرَّدُ الصْــــدَرُ

* * *

تَنَهَّدَ الليلُ ، حتى قلتُ : "قد نُـــثِرَتْ
تلك النجومُ ، ومـــات الجـــنُّ والبشـــرُ
وعاد للصمـــتِ .. ، يُصغـــى فى كآبتِـــهِ
- كالفيلسوفِ - إلى الدنيا ، ويفتكرُ ..
وقَهْقَـــه القـــدرُ الجبَّـــارُ ، ســـــخريةً
بالكائنـــات . تَضَـــاحَكْ أيُّـــها القـــدرُ !
تمشـــى إلى العَـــدَمِ المحتـــومِ ، باكيـــــةً
طوائـــفُ الخلـــق والأشـــكالُ والصـــورُ
وأنت فوقَ الأسى والمـــوتِ ، مبتســـمٌ
ترنـــو إلى الكـــونِ ، يُبْنَـــى ، ثمَّ يندثـــرُ

فَلْسَفَةُ الثُّعْبانِ المُقَدَّس

"فلسفة الثعبان المقدس هى فلسفة القوة المثقفة فى كل مكان . وكما تحدث الثعبان فى القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة حينما حاول أن يزين له الهلاك الذى أوقعه فيه ، فسماه "تضحية" وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس ...

كذلك تتحدث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينما تحاول أن تسوغ طريقتها فى ابتلاعها والعمل لقتل مميزاتها القومية فتسميها : "سياسة الإدماج" وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذى لا معدى عنه لهاته الشعوب إذا أرادت نيل حقوقها فى هذا العالم ، وبلوغ الكمال الإنسانى المنشود ، ولكن الفناء حقيقة شنيعة ، مبغضة ، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما فى التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام "

كان الربيـــعُ الحـــيُّ رُوحًـــا ، حالمًـــا
غضَّ الشـــبابِ ، معطَّـــرَ الجلبـــابِ

يمشى على الدنيـــا ، بفكـــرة شـــاعرٍ
ويطوفـــها ، فى موكـــبٍ خـــلاّبِ

والأُفْـــقُ يمـــلأه الحنـــانُ ، كأنـــــه
قلـــبُ الوجـــودِ المنتـــجِ الوَهـــابِ

والكون مـــــن طُـــهْرِ الحيـــاةِ كأنمـــا
هـــوَ معبـــدٌ ، والغـــابُ كـــالمحرابِ

الشاعرُ الشحرورُ يرقـــــصُ ، منشـــدًا
للشمس ، فوقَ الـــوردِ والأعشـــابِ

شعْرَ الســـعادةِ والســـلامِ ، ونفسُـــهُ
سَـــكْرَى بسِـــحْرِ العـــالَمِ الخـــلاّبِ

ورآه ثعبـــانُ الجبـــال ، فغمَّـــــهُ
ما فيه من مَـــرَحٍ ، وفَيْـــضِ شـــبابِ

وانقـــضَّ ، مضْطغِنًـــا عليـــهِ ، كأنَّـــه
سَوطُ القضـــاءِ ، ولعنـــةُ الأربـــابِ

بُغِتَ الشقيُّ ، فصاح فى هول القضـــا
متلفتًـــا للصـــائلِ المُنْتَـــابِ

وتَدَفَّقَ المسـكينُ يصـرخ ثـائرًا :

" ماذا جنيتُ أنـا فحـق عقـابى ! "

" لا شـيءَ ، إلا أنـى متغـزلٌ

بالكائنـاتِ ، مغـرِّدٌ فى غـابى"

" ألقى من الدنيـا حنانًـا طـاهرًا

وأبثُّـها نجـوى المحـبِّ الصـابى)

"أيُـعَدُّ هذا فى الوجود جريمـةً ؟ !

أيـن العدالـةُ يـا رفـاقَ شـبابى ؟"

" لا (أين ؟) ، فالشرعُ المقدَّس هاهنـا

رَأيُ القـويِّ وفكـرةُ الغـلاَّبِ ! "

" وسعادةُ الضعفاءِ جُـرْمٌ . . ، مالـه

عند القـويِّ سـوى أشـدِّ عقـابِ ! "

" ولتشـهدِ الدنيـا الـتى غَنَّيْتُـهَا

حلـمَ الشـبابِ وروعـةِ الإعجـابِ "

" إن السـلامَ حقيقـةٌ ، مكذوبـةٌ

والعـدلَ فلسـفةُ اللـهيبِ الخـابى "

" لا عدلَ ، إلا إن تعـادلت القُـوَى

وتصَـادَمَ الإرهـابُ بالإرهـابِ "

فتَبَسْمَ الثعبانُ بسمةَ هازئٍ
وأجاب فى سَمْتٍ ، وفَرْطِ كِذَابِ

" يا أيها الغِرُّ المثرثرُ ، إننى
أرثى لثورةِ جهلِكَ التلاّبِ "

" والغِرُّ يعذره الحكيمُ إذا طغى
جهلُ الصِّبا فى قلبِهِ الوَثَّابِ "

" فاكبحْ عواطفَكَ الجوامحَ ، إنّها
شردتْ بُلبِّكَ ، واستمعْ لخطابِى "

" إنِّى إلهٌ ، طَالَمَا عَبَدَ الورى
ظلّى ، وخافوا لعنَتى وعقابِى "

" وتقدَّموا لى بالضحايا مِنْهُمُ
فَرِحِين ، شأنَ العابِدِ الأوّابِ "

" وسعادةُ النفسِ التقيِّةِ أنّها
يومًا تكون ضحيَّةَ الأربابِ "

" فتصيرُ فى رُوحِ الألوهةِ بضعةً ،
قُدُسِيَّةً ، خلصتْ من الأوشابِ "

" أفلا يسرُّكَ أنْ تكونَ ضحيَّتى
فتحُلَّ فى لحمى وفى أعصابى "

" وتكونَ عزمًـــا فى دمـــى ، وتوهُّجًـــا
فى نـــاظريَّ ، وحِـــدَّةً فى نـــابى "
" وتذوبَ فى رُوحـــى الـــتى لا تنتـــهى
وتصيرَ بعـــضَ ألوهـــتى وشبابى ... ؟"
" إنى أردتُ لـــك الخلـــودَ مؤلهـــاً
فى روحىَ الـــباقى عـــلى الأحـــقابِ .. "
" فكِّرْ ، لتـــدركَ مـــا أريـــدُ ، وإنّـــهُ
أسمـــى مـــن العيـــشِ القصـــيرِ النـــابى "
" فأجابه الشحرورُ ، فى غُصَص الـــرَّدى
والمـــوتُ يخنُقُـــهُ : "إليـــكَ جـــوابى : "
" لا رأيَ للحقِّ الضعيفِ ، ولا صـــدى ،
والـــرَّأيُ ، رأىُ القـــاهرِ الغـــلاّبِ "
" فافعلْ مشـــيئتكَ الـــتى قـــد شـــئْتَهَا
وارحمْ جـــلالَكَ من سمـــاعِ خطابى .. "

* * *

وكـــذاكَ تتخـــذُ المظـــالمُ منطقًـــا
عذْبًـــا لتُخْفِـــــى سَـــــوْءَةَ الآرابِ

مراجعُ البحث

١- أغانى الحياة (ديوان الشابى) .

٢- الشابى وجبران ـــ محمد خليفة التليسى .

٣- الشابى شاعر الحب والحياة ـــ عمر فروخ .

٤- أبو القاسم الشابى ـــ زين العابدين السنوسى .

٥- آثار الشابى وصداه فى الشرق ـــ أبو القاسم محمد كرو .

٦- كفاح الشابى ـــ أبو القاسم محمد كرو .

٧- الشابى ، حياته وشعره ـــ أبو القاسم محمد كرو .

٨- النبى المجهول ـــ مصطفى الحبيب بحرى .

٩- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث - مصطفى عبد اللطيف السحرتى

١٠- جماعة أبوللو ـــ عبد العزيز الدسوقى .

١١- الرومانتيكية ـــ الدكتور محمد غنيمى هلال .

١٢- **Rousseau and Romanticism – By Irving Babit**

١٣- **The Romantic Agny by Mario Praz**

١٤- دراسات فى الشعر المعاصر ـــ الدكتور شوقى ضيف .

الفهرس



أبو القاسم الشابى

شاعر الحب والثورة

أبو القاسم الشابى أحد أبرز شعراء عصر النهضة ، الذين غنوا إرادة الشعب ، ودعوا إلى يقظة العرب من كبوتهم التاريخية .

إن صوته الداوى وإيمانه العميق بقدرة الشعب بلا حدود :

« إذا الشعب يوما أراد الحياة   فلابد أن يستجيب القدر »

يمثل الشابى فى المغرب العربى البذور الأولى للثورة ، الثورة الرومانسية التى كان جبران خليل جبران أحد روادها الأوائل فى المشرق العربى .

فى هذه الدراسة الجادة والمركزة ، يقدم الناقد رجاء النقاش ، الشابى شاعرا ثوريا مناضلا ، معتمدا النصوص الشعرية ، والدراسة المقارنة ، والتحليل التاريخى لعصر الشاعر ، والمعطيات الفكرية التى أثرت على شاعر المغرب العربى الكبير .

الناشر

أطلس

6 224000 168674